جامعة عين تموشنت

كلية الآداب واللغات والعلوم الاجتماعية

قسم العلوم الاجتماعية.

دروس في مادة: تيارات فكرية كبرى

موجهة لطلاب السنة أولى علوم اجتماعية

- جذع مشترك-

إعداد: د. سرير أحمد بن موسى

الموسم الجامعي: 2023-2024

فهرس المحتويات

المحتوى	الصفحة
فهرس المحتويات	07-02
مقدمة	09-08
التعريف بالمادة	12-10
المحاضرة الأولى: مدخل مفاهيمي	17-13
مقدمة	14-13
1- التيار	15-14
2- المذهب	16-15
3- المدرسة	17-16
خاتمة	17
المحاضرة الثانية: التيار المثالي (المثالية) Idéalisme	26-18
مقدمة	18
1- مفهوم المثالية	19-18
2- تأسيس التيار المثالي ورواده	20-19
3- مذاهب التيار المثالي (المثالية الموضوعية، الإشكالية، النقدية)	24-21
مناقشة	25
خاتمة	26

المحاضرة الثالثة: التيار المادي (المادية) Matérialisme	34-27
مقدمة	27
1- مفهوم المادة والمادية	29-27
2- المادة بين العلم والفلسفة	33-29
مناقشة	33
خاتمة	34
المحاضرة الرابعة: التيار العقلانية (العقلانية) Rationalisme	40-35
مقدمة	35
1- التعريف بالتيار العقلاني	36-35
2- مسلّماته	36
3- اتجاهاته (العقلانية اليونانية، الإسلامية، الحديثة)	37-36
4- رواده (ابن رشد، سبينوزا، ليبنتز)	38-37
5- نموذج شخصية عقلانية (رونيه ديكارت)	39-38
6- مناقشة	40-39
خاتمة	40
المحاضرة الخامسة: التيار التجريبي (التجريبية) Empirisme	47-41
مقدمة	41
1- التعريف بالتيار التجريبي	41

2- مسلماته	43-42
3- مراحل تطوّره	46-43
4- رواده (أرسطو، ابن سينا، جون لوك، دافيد هيوم)	46
5- مناقشة	47-46
خاتمة	47
المحاضرة السادسة: التيارات البنيوية (البنيوية) Structuralisme	54-48
مقدمة	48
1- التعريف بالتيار البنيوي	50-49
2- تيارات البنيوية (الوظيفية، الصورية، التكوينية)	52-50
3- أسس المنهج البنيوي	53-52
4- مناقشة	54-53
خاتمة	54
المحاضرة السابعة: التيار الوظيفي (الوظيفية) Fonctionnalisme	61-55
مقدمة	55
1- التعريف بالتيار الوظيفي	56-55
2- مجالات الوظيفية (الأنثروبولوجيا، علم الاجتماع، علم النفس، اللسانيات)	59-56
3- مبادئ ومنطلقات الوظيفية	60-59
4- مناقشة	61-60

خاتمة	61
المحاضرة الثامنة: التيار الماركسي (الماركسية) Marxisme	67-62
مقدمة	62
1- التعريف بالتيار الماركسي	63-62
2- مبادئ الماركسية (المادية الجدلية، المادية التاريخية)	66-64
3- مناقشة	66
خاتمة	67-66
المحاضرة التاسعة:التيار التطوري الداروينيEvolutionnisme Darwinien	73-68
مقدمة	68
1- التعريف بالتيار التطوري	71-68
2- مبادئ التطور من لامارك إلى داروين	72-71
3- مجالات التطورية (الفلسفة، علم الاجتماع، الأنثروبولوجيا)	73-72
4- مناقشة	73
خاتمة	73
المحاضرة العاشرة: التيار الوجودي (الوجودية) L'existencialisme	78-74
مقدمة	74
1- التعريف بالتيار الوجودي	75-74
2- أقسام الوجودية (الوجودية الحرّة، الوجودية المؤمنة)	76

3- مبادئ الوجودية	77-76
4- مناقشة – خاتمة	78-77
المحاضرة الحادية عشر: تيار التحليل النفسي Psychanalyse	85-79
مقدمة	79
1- التعريف بالتحليل النفسي	80-79
2- مبادئ التحليل النفسي	82-80
3- اتجاهات التحليل النفسي ومجالاته	83-82
4- مناقشة	84
خاتمة	85-84
المحاضرة الثانية عشر: التيار السلوكي (السلوكية) Behaviorisme	91-86
مقدمة	86
1- التعريف بالتيار السلوكي	88-86
2- أنواع السلوكية وروادها	89-88
3- مبادئ السلوكية	89
4- مناقشة	91-90
خاتمة	91
المحاضرة الثالثة عشر: التيار البراغماتي (البراغماتية) Pragmatisme	96-92
مقدمة	92

1- التعريف بالتيار البراغماتي	93-92
2- مبادئ البراغماتية وروادها	96-93
3- مناقشة	96
خاتمة	96
المحاضرة الرابعة عشر: التيار الفينومينولوجي (الفينومينولوجيا) Phénoménologie	104-97
مقدمة	97
1- التعريف بالتيار الفينومينولوجي (الظواهري)	99-97
2- مبادئ الفكر الفينومينولوجي وآلياته	103-99
3- الفينومينولوجيا بعد هوسرل	103
4- مناقشة	104-103
خاتمة	104
المحاضرة الخامسة عشر: التيار التأويلي (التأويلية) Herméneutique	114-105
مقدمة	105
1- التعريف بالتيار التأويلي	106-105
2- مراحل تطور التأويلية (المرحلة الكلاسيكية، الرومانسية، الفلسفية)	111-107
3- خصائص القراءة التأويلية	112-111
4- مناقشة- خاتمة	114-112
قائمة المراجع	118-115

مقدّمة:

تتضمّن هذه المطبوعة البيداغوجية دروسا في مادة تيارات فكرية كبرى، وهي مادة أساسية موجّهة لطلبة السنة الأولى جذع مشترك علوم اجتماعية. وقد تمّ إدراج هذه المادة التعليمية ضمن التعديل الذي أدخل خلال الموسم الجامعي (2024-2023) على عروض تكوين الليسانس (ل م د) في ميدان العلوم الإنسانية و الاجتماعية، حيث وزّعت وحدات التعليم في الجذع المشترك على الشكل التالي:

السداسي الأول:

- وحدة التعليم الأساسية: لم تتغيّر وتتضمّن المواد التالية: مدخل إلى الأنثروبولوجيا، مدخل إلى علم النفس، مدخل إلى علم الاجتماع ومدخل إلى الفلسفة.

- وحدة التعليم المنهجية: إدراج مادة ابستمولوجيا العلوم الاجتماعية بدلا من مادة مدارس ومناهج1، إلى جانب مادة الإحصاء الصفي، وحذف مادة الإعلام الآلي.

وحدة التعليم الاستكشافية: إدراج مادتي تاريخ الجزائر والبحث الوثائقي بدلا من مادتي مدخل إلى الاقتصاد، التي تحولت إلى مادة أفقية، وفرد وثقافة التي تمّ حذفها.

وحدة التعليم الأفقية: مادة اللغة الأجنبية.

السداسي الثاني:

- وحدة التعليم الأساسية: إلى جانب المواد الأساسية الثلاثة السابقة (مدخل إلى علوم التربية، ومدخل إلى علم السكان، ومدخل إلى الأرطوفونيا)، أدرجت مادة تيارات فكرية كبرى، بدلا من مادة مجالات العلوم الاجتماعية.

- وحدة التعليم المنهجية: إدراج مادة منهجية البحث العلمي بدلا من مادة مدارس ومناهج2، إلى جانب مادة الإحصاء الاستدلالي، وحذف مادة الإعلام الآلي2.

- وحدة التعليم الاستكشافية: إدراج مادتي تاريخ الجزائر2 والبحث الوثائقي2، بدلا من تاريخ الجزائر الثقافي ومدخل إلى مجتمع المعلومات.

- وحدة التعليم الأفقية: إدراج مادة مجتمع المعلومات التي كانت مادة استكشافية، إلى جانب مادة اللغة الأجنبية2.

وبالنظر إلى الأهمية التي يكتسيها التكوين القاعدي المشترك في ميدان العلوم الإنسانية والاجتماعية، والأهداف المنشودة من ورائه، قامت اللجنة البيداغوجية الوطنية لميدان العلوم الإنسانية والاجتماعية، بمراجعة المضامين المعرفية للوحدات التعليمية حتّى تتوافق مع هذه المقتضيات والمتطلبات. وإدراج مادة تيارات فكرية كبرى ضمن وحدة التعليم الأساسية يندرج ضمن هذا المسعى. ذلك أن الانفتاح على كبرى تيارات الفكر، يهدف إلى تأهيل طالب الجذع المشترك وتمكينه من فحص المنطلقات والمبادئ الفكرية للبحوث والدراسات الإنسانية والاجتماعية، والوعي بمحدّدات المواقف الفكرية، واكتساب مهارة تصنيف الاتجاهات الفكرية وفحص أسسها ومبادئها النظرية. وتضمّن برنامج المادة: مدخل مفاهيمي، التيار المثالي، التيار العقلاني، التيار التجريبي، التيار المادي، التيارات البنيوية، التيار الوظيفي، التيار الماركسي، التيار التطوري الداروينى، التيار الوجودي، تيار التحليل النفسي، التيار السلوكي، التيار البراغماتي، التيار الظواهري، التيار التأويلي. ولاعتبارات منهجية قمنا بتقديم التيار المادي وعرضه مباشرة بعد التيار المثالي، كما حرصنا في بناء كلّ الدروس على إتباع الخطوات التالية: التعريف بالتيار الفكري، والكشف عن بنيته الفكرية ومبادئه الأساسية مع ذكر أبرز أعلامه وممثليه، ثمّ محاولة تقديم قراءة تقييمية، ولو مختصرة، لهذا التيار.

التعريف بالمادة

السداسي: الثاني

اسم الوحدة: تعليم أساسية

اسم المادة: تيارات فكرية كبرى

الرصيد: 05

المعامل: 02

الحجم الساعي خلال السداسي: 45 ساعة

الحجم الساعي الأسبوعي: 1سا و30د (محاضرة) 1سا و30د (أعمال موجهة)

طريقة التقييم:مراقبة مستمرة (40%) + امتحان (60%)

أهداف التعليم:

1) تمكين الطالب من فحص المنطلقات النظرية للبحوث والدراسات الإنسانية والاجتماعية .
2) إدراك المحددات الأساسية للمواقف الفكرية تنوعه.

المعارف المسبقة المطلوبة:

1) تاريخ الفكر.

2)الاطلاع على أهم الإشكاليات الفكرية الاجتماعية.

3) الخصائص الجوهرية للتفكير الإنساني.

القدرات المكتسبة:

1) القدرة على تصنيف المواقف الفكرية.

2) القدرة على نقد المواقف و أسسها النظرية.

3)القدر ة على استنباط الموجهات المضمرة و المعلنة في البحوث و الدراسات.

محتوى المادة:

1) مدخل مفاهيمي (التيار. المدرسة. المذهب....)
2) التيار المثالي
3) التيار العقلاني
4) التيار التجريبي
5) التيار المادي
6) التيارات البنيوية
7) التيار الوظيفي
8) التيار الماركسي
9) التطورية الداروينية
10) التيار الوجودي
11) تيار التحليل النفسي
12) التيار السلوكي
13) التيار البراغماتي
14) التيار الظواهري
15) التيار التأويلي

المراجع:

1. أندري لالند، الموسوعة الفلسفية، تع: خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت ، باريس.
2. جامعة من الأساتذة السوفيات، المادية الدياليكتيكية، تر: بدر الدين السباعي و آخرون، دار الجماهير.
3. جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982.
4. جورج غوسدوروف، أصول التأويلية، تر: فتحي إقزو، مؤسسة مؤمنون بلا حدود، الدار البيضاء،ط1، 2018.
5. جون كوتنهام، العقلانية فلسفة متجددة، ترجمة: محمود منقذ الهاشمي، مركز الإنماء الحضاري،د.ت.

6. جون ليتشه، خمسون مفكرا من البنيوية إلى ما بعد الحداثة، تر : فاتن البستاني، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 2008.
7. روبرت ودورث، مدارس علم النفس المعاصر، ترجمة كمال دسوقي.
8. ساخاروفا،من فلسفة الوجود إلى البنيوية، تر: أحمد برقاوي، دار دمشق، ط1، 1984.
9. عثمان أمين، رواد المثالية في الفلسفة الغربية المعاصرة،دار الثقافة للنشر و التوزيع،القاهرة
10. فؤاد كامل و آخرون، الموسوعة الفلسفية المختصرة، دار القلم ، بيروت، دون طبعة، دون تاريخ.
11. كرنزمان بيتر و آخرون، أطلس الفلسفة، تر: جورج كتورة، المكتبة الشرقية، بيروت، ط1، 2001.
12. لينين، المادية و المذهب النقدي التجريبي،دار التقدم ، موسكو.
13. مصطفى النشار: أعلام الفلسفة في الشرق والغرب: أفلاطون رائد المثالية، مكتبة دار العربية للكتاب، القاهرة، ط1، 2018.
14. وليم جيمس، البراغماتية، تر: وليد شحادة،دار الفرقد، دمشق، ط1، 2014.

المحاضرة الأولى: مدخل مفاهيمي

الهدف: ضبط المفاهيم التصنيفية وإبراز الاختلافات الموجودة بينها: مذهب، تيار، مدرسة، اتجاه، نظرية....

مقدمة:

حاول الإنسان منذ أن خطا الخطوات الأولى في درب المعرفة أن يفسّر المحيط الذي يعيش فيه، وعرفت محاولته هذه أكثر من عائق، وعلى رأس التحدّيات التي واجهت الإنسان هو استعصاء الواقع على الفهم البشري، الشيء الذي دفعه- خاصة في المرحلة المبكّرة من نشوء الحضارة- إلى الارتماء في عالمه الداخلي حيث حاك الكثير من التخيلات وبلور الكثير من التصوّرات بل الأوهام، إذ "كان ما يزال الدين والعلم، المثالية والمادية ملتحمين في الأسطورة، ولا يوجدان بعد في تناقض مع بعضهما" كما يقول المفكر الفرنسي روجي جارودي.

وقد ساهمت عوامل كثيرة في تحويل الإنسان من التفكير انطلاقا من الميتوس Mythos (الأسطورة) إلى التفكير انطلاقا من اللوغوس Logos (العقل)، حيث تبلور نمط جديد من التفكير مخالف للتفكير الأسطوري، وهو أسلوب التفكير الفلسفي. إلاّ أنّ هذا التفكير لم يكن يشكّل وحدة فكرية متجانسة منذ ميلاد الفكر الفلسفي مع اليونان إلى يومنا هذا، ويتجلّى ذلك في وجود مذاهب وتيارات فكرية مختلفة ومتباينة تصل إلى حدّ التضارب والتناقض في مواقفها ورؤيتها للكون وتصوّرها للمعرفة، ومنظورها للإنسان والتاريخ والمجتمع....الخ.

سنحاول من خلال هذه المحاضرات أن نتعرّف على هذه التيارات الفكرية الكبرى التي أنتجها الفكر البشري قديما وحديثا، في مجال الفلسفة والعلوم الإنسانية والاجتماعية وهي:

- التيار المثالي، التيار المادي، التيار العقلاني، التيار التجريبي، التيارات البنيوية، التيار الوظيفي، التيار الماركسي، التيار التطوري، التيار الوجودي، التيار التحليلي النفسي، التيار السلوكي، التيار البراغماتي، التيار الظواهري، التيار التأويلي.

والهدف من ذلك ليس هو مجرّد الوقوف على كيفية تصنيف هذا الإنتاج النظري والفكري، بل معرفة البنية الفكرية لهذه التيارات، والمعايير الأساسية التي تحدّدها، والتي تسمح بالتمييز بينها، وذلك قصد التمكّن من فحص المنطلقات النظرية لمختلف البحوث والدراسات الإنسانية والاجتماعية .

وقبل الخوض في عرض هذه التيارات الفكرية وبناها الأساسية، لا بدّ من باب الضرورة المنهجية أن ننظر أولا في شبكة المفاهيم المتداولة في هذا المجال، مجال التنظير أو التصنيف. فما هي هذه المفاهيم ؟ وكيف يمكن التمييز بينها؟

ما مفهوم التيار ؟ وما مفهوم المذهب ؟ وما مفهوم المدرسة ؟ وماذا نعني بالاتجاه، النزعة والنظرية ؟

1- التيار: *Courant

التيار في اللغة حركة سطحيّة في ماء المحيط، تتأثر باتجاهات الرياح، وقيل شدة جريان الماء، أي أن فيه معنى القوة والاندفاع مثل تيار الهواء، تيار الماء، تيار الأمواج. وفي علم الطبيعة التيار: سيّال كهربائي يجري في جسم موصل للكهرباء. وخص بعضهم به موج البحر وهو آذيه وموجه "[1].
كلمة تيار هي ترجمة للكلمة الانكليزية (trend) التي تعني نزعة أو نزعات، أي الطريقة التي تتغير وفقها الأشياء، وتعني أيضا ميل أو اتجاه. وتترجم أيضا كلمة (current) إلى تيار أو تيارات، وتتضمن ما يعني تيار مائي أو هوائي (هواء أو ماء متحرك) أو تيار كهربائي (كهرباء يمر عبر السلك)". وفي اللغة، يشير معجم مقاييس اللغة إلى أن كلمة (تيار) بمعنى " موج البحر الذي ينضح الماء "[2].

التيار إذن حركة سطحية تحدث في ماء المحيط وتتأثّر باتجاه حركة الرياح، وتنقل المياه الدافئة إلى المناطق الباردة، أو تنقل المياه الباردة إلى المناطق الدافئة، كما يعرف التيار بأنه شدّة جريان الماء[3].

واصطلاحا يعرّف بأنه "الحركة المندفعة كالموج، تكتسب صفة الشمولية والجماعيّة، فتنتقل عبر الأشخاص وعبر حامليها إلى أكثر من مكان، ولها أثر في الحياة الاجتماعية والسياسية، بالتالي ما لم يؤثر اجتماعيا وسياسيا لا يسمى تيارا، وهو ما يصوغ أنظمة وقوانين مثل الرأسمالية، والديمقراطية،

(*)- Courant : du participe passer du verbe courir au sens de couler.

[1] جميلة بنت عيادة الشمري، **مفهوم التيارات الفكرية وعلاقته بالمصطلحات ذات الصلة**، شبكة الألوكة، ط.؟، 2016، ص. 10.

[2] عدي إبراهيم المناوي، **التيارات السياسية العلمانية و صناعة الرأي العام : دراسة حالة العراق بعد 2003**، دار زهران للنشر والتوزيع، عمان/الأردن، ط. 1، 2013، ص. 18.

[3] - مجمّع اللغة العربية، **المعجم الوسيط**، مكتبة الشروق الدولية، بيروت، 2004، ص 91. (بتصرّف)

والعلمانية وغيرها، فالتيار ما اكتسب زخما فكريا وتطبيقا اجتماعيا وتأثيرا سياسيا في الحياة "[1]. وبهذا فإنَّ التيار هو الذي اكتسب كمية هائلة من التأثير في الحياة في المجالات: الفكريّة، والتطبيقيّة، والاجتماعيّة، والسياسيّة، كما تعني كلمة تيار تعدد الأفكار ووجهات النظر تجاه قضية أو أمر معين. التيار إذن **مسار** أو **اتّجاه** أو **حركة** عامة.

والتيار الفكري: يشير إلى حركة فكرية تنتهجها مجموعة من الأشخاص أو الجماعات المتبنية لفكرة أو اتجاه واحد، ويكون هدفهم من ذلك تغيير النظام القائم بأبعاده المختلفة، سواء كانت سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية، واستبداله بنظام يحمل أفكارا جديدة. والتيار أوسع وأشمل من المدرسة، كما أن المدرسة لها مؤسّس بخلاف التيار.

مثال: التيار الوضعي، التيار العقلاني، التيار السلفي، التيار الديمقراطي.....الخ

2- المذهب: système / Doctrine

المذهب في اللغة كلمة مشتقة من الأصل الفعلي لذهب، وذهب لغة سار ومشى وراح إلى حاله، وأذهب أزال ومحا. والمذهب مفعل من الذهاب وهو الطريق ومكان الذهاب، يقال ذهب القوم مذاهب شتّى أي ساروا في طرائق مختلفة، وذهب الشخص مذهبه سار في طريقه[2]. أمّا اصطلاحا:

- المذهب (système) الطريقة، والمعتقد الذي تذهب إليه. والمذهب عند الفلاسفة مجموعة من الآراء والنظريات الفلسفية ارتبطت بعضها ببعض ارتباطا منطقيا حتّى صارت ذات وحدة عضوية متّسقة ومتماسكة. والمذهب أعمّ من النظرية Théorie، ويغلب على أصحاب المذاهب أن يرجعوا نظرياتهم وآرائهم إلى عدد محدود من المبادئ، من غير أن يطابقوا بينها وبين شروط الواقع مطابقة تامة[3].

- المذهب التعليمي (Doctrine) هو مجموعة من المبادئ والآراء الدينية أو الفلسفية أو العلمية أو الفقهية، المنسوبة إلى أحد المفكرين أو إحدى المدارس. جاء في منطق بوروايال: " أن هناك طريقتين إحداهما يصلح للكشف عن الحقيقة، وتسمّى بالتحليل أو بالاختراع، والأخرى تصلح لنقل الحقيقة إلى الآخرين بعد كشفها، وتسمّى بطريقة التركيب أو التعليم". ومن خصائص المذهب التعليمي أن تكون

[1] جميلة بنت عيادة الشمري، **مفهوم التيارات الفكرية وعلاقته بالمصطلحات ذات الصلة**، مرجع سابق، ص. 10.

[2] - ابن منظور، **لسان العرب**، مادة ذهب، دار المعارف، القاهرة، مصر، 2016.

[3] - جميل صليبا، **المعجم الفلسفي، الجزء الثاني**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982، ص 361.

مبادئه وحقائقه متّصلة بالعمل، لا أن تكون مجرّد حقائق نظرية، ولذلك قيل: الفرق بين العلم والمذهب التعليمي أنّ الأوّل يشاهد ويفسّر والثاني يحكم ويأمر ويطبّق"[1].

المذهب أعمّ من التيار، مثلما أن التيار أوسع وأشمل من المدرسة.

3- المدرسة (Ecole)

بالمعنى الضيّق هي جماعة من المفكرين أو الفلاسفة أو العلماء لهم مذهب واحد، ونظام واحد، ومكان واحد للاجتماع، ورئيس أو عدّة رؤساء يتعاقبون على التعليم. مثل:مدرسة أرسطو (الليسة)، أكاديمية أفلاطون، مدرسة أبيقور....الخ

أمّا المدرسة بالمعنى الواسع فهي جماعة من العلماء أو الفلاسفة ينتسبون إلى مذهب واحد، أو يدافعون هن مبدأ أساسي واحد. مثل: المدرسة الطبيعية، المدرسة الأيونية، مدرسة فرانكفورت أو المدرسة النقدية للمجتمع، المدرسة الرومانسية....الخ.

وإذا استعمل لفظ المدرسة بصيغة المفرد L'école دلّ على الفلسفة المدرسية[2] أو السكولائية كما تسمّى. والفلسفة المدرسية أو السكولائية Scolastique هي الفلسفة التي كانت تستخدم منهجا نقديا في التحليل الفلسفي، وانحدرت عن مدارس آباء الكنيسة خلال فترة العصور الوسطى 1100- 1700م، وكانت الأساس الذي نشأت منه أقدم الجامعات الأوروبية.

المدرسة تنضوي تحت المذهب والتيار، وتتفرّع عنه فهي لا تخرج عنه في أصوله، وإنما تختلف عنه في بعض المسائل الفرعية.مثل مدارس المذهب المالكي (المدرسة المدنية، المصرية، العراقية.....)، مدارس المذهب الرومانسي، مدارس المذهب الواقعي....الخ.

ومن بين المفاهيم المتداولة أيضا في هذا السياق نجد مفهوم **الاتجاه Orientation**، ومفهوم **النزعة Tendance** . الاتجاه هو القصد والمقصد والإقبال على الشيء، والمسار والطريق والميل للنزعة والمذهب، **يقال اتجه إليه أي ذهب إليه**. واصطلاحا الاتجاه هو تنظيم متناسق من المفاهيم والمعتقدات والعادات والدوافع بالنسبة لشيء محدّد يقصد به الاستجابة لتلك المفاهيم والمعتقدات. أمّا النزعة من النزوع إلى كذا، فهي الميل والحركة والرغبة، وتنقسم إلى نزعات شخصية (تهدف إلى تحقيق مصلحة

[1] - المرجع نفسه، ص 361.

[2] - المرجع نفسه، ص 316.

صاحبها)، ونزعات غيرية (تحقيق مصالح الآخرين)، ونزعات عالية (تهدف إلى تحقيق غايات مجرّدة أعلى من الغايات الفردية أو الاجتماعية).

خاتمة:

يبدو ممّا سبق أن التحليل اللغوي يكشف عن وجود اختلاف بين المفاهيم المتداولة في مجال التنظير وتصنيف الإنتاج الفكري، مفاهيم، المذهب، التيار، المدرسة، الاتجاه، النزعة، النظرية....لكن مع ذلك كانه نوع من الترابط والصلة بين هذه المفاهيم على المستوى العملي، فالمذهب يتضمّن تيارات والتيار يحتوي مدارس واتجاهات، فمن المذاهب تتكون التيارات والمدارس والاتجاهات المختلفة، وهذا التصنيف للمذاهب أو التيارات والمدارس الفكرية يتمّ حسب المجالات والحقول المعرفية وحسب المناطق الثقافية، كأن تصنّف التيارات الفلسفية حسب المجالات إلى: التيار الميتافيزيقي، وتيار الفلسفة الأخلاقية، والتيار الابستيمولوجي، وتيار الفلسفة السياسية، وحسب المناطق إلى: الفلسفة التحليلية الأنجلوسكسونية، الفلسفة القارية، الفلسفة العربية الإسلامية....الخ.

المحاضرة الثانية: التيار المثالي (المثالية)Idéalisme

الهدف: التعريف بالتيار المثالي وبنيته الفكرية

مقدمة:

أشرنا سابقا إلى أن التفكير الإنساني عموما والتفكير الفلسفي خصوصا لم يشكّل وحدة متجانسة منذ نشأته، ويتجلّى ذلك في وجود تيارات فكرية وفلسفية مختلفة، تتباين وتتضارب من حيث تصوراتها للكون والمعرفة، والإنسان والتاريخ والمجتمع....الخ. وقد أدّى تعدّد التيارات والمذاهب الفلسفية إلى طرح إشكالية فلسفية مثلما طرح تعدّد الفلسفات وتباينها إشكالية تعريف الفلسفة. وتاريخ الفكر الفلسفي يطلعنا على تصنيف تقليدي أصبح متعارفا عليه مثل التقليد الذي سار عليه المهتمون بالفلسفة في تمييزهم بين ثلاثة محاور رئيسية في النسق الفلسفي: الوجود، المعرفة والقيم.

والتصنيف الكلاسيكي للفلسفات يميّز بين تيارين أساسيين: التيار المثالي Ideal Current والتيار المادي Material Current. وهنا نتساءل: ما هي المثالية؟ وما هي المادية ؟ ما هي المعايير الأساسية التي تحدّد البنية الفكرية لفلسفة ما باعتبارها ذات نزوع مادي أو تصوّر مثالي ؟

1- مفهوم المثالية: Idéalisme

المثال Idée صورة الشيء الذي تمثل صفاته، والقالب أو النموذج الذي يقرّر على مثله، والجزئي الذي يذكر لإيضاح القاعدة، وإيصالها إلى فهم المتعلّم. والمثال عند أفلاطون صورة مجرّدة، وحقيقة معقولة، أزلية ثابتة قائمة بذاتها، لا تتغيّر ولا تدثر، ولا تفسد: قال الفارابي: " إن أفلاطون في كثير من أقاويله يومئ إلى أن للموجودات صورا مجردة في عالم الإله، وربّما يسمّيها بالمثل الإلهية، وإنها لا تدثر، ولا تفسد، ولكنها باقية، وأن الذي يدثر ويفسد إنما هو هذه الموجودات التي هي كائنة"[1]. والمثالي Idéal هو المنسوب إلى المثال، ويطلق على صورة الشيء الكاملة، أو على ما يحقّق هذه الصورة تحقيقا تاما.

ويطلق اسم المثالية بوجه عام على النزعة الفلسفية التي تقوم على ردّ كل وجود إلى الفكر بأوسع معانيه. وهي بهذا المعنى مقابلة للواقعية الوجودية التي تقرّر أن هناك وجودا مستقلاّ عن الفكر[2]. وهذا اللّفظ-

[1] - - جميل صليبا، **المعجم الفلسفي، الجزء الثاني**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982، ص 335.

[2] - المرجع نفسه، ص 337.

المثالية- يدلّ على اتّجاه أكثر ممّا يدلّ على عقيدة: فهو يستعمل خصوصا في النقد أو في السّجال، لتمييز نظرية أو منظومة من خلال معارضتهما مع نظريات أو منظومات أخرى تستوعب الوجود في الفكر عند أدنى درجة[1].

وينبغي تمييز شكلين غالبا ما يتمّ الخلط بينهما، أي أن للمثالية صورتان: الأولى تريد أن تردّ الوجود إلى الفكر الفردي، وتسمّى بالذاتية أو المثالية الشخصية، بينما تريد الثانية أن تردّ الوجود إلى الفكر بوجه عام فرديا كان، أو جماعيا، أو كليا.

2- تأسيس التيار المثالي ورواده:

أ- أوّل من استعمل لفظ المثالية في اللغة الفلسفية فلاسفة القرن 17م، وبالأخص الفيلسوف الألماني "ليبنتز" الذي جعل المثالي Idéaliste مقابلا للمادي Matérialiste. ثم أطلقت بعد ذلك على الأفلاطونية، لقول أفلاطون بالمثل، وهي نماذج وصور العالم الحسي، وتتمتع بوجود مفارق في عالم خاص بها هو عالم المعقولات أو عالم المثل، وتسمّى هذه المثالية الأفلاطونية بالمثالية الوجودية أو الأنطولوجية.

ب- ثمّ أطلق مصطلح المثالية في القرن 18م على مذهب الفيلسوف الإرلندي " جورج بركلي"، مع أن مذهبه يطلق عليه اسم **اللامادية** Immatérialisme لا إسم المثالية، وقد بيّن "كريستيان وولف" أن هذه اللامادية مقابلة لمذهب المثاليين، ولمذهب الماديين، ولمذهب الريبيين.

ج- ويطلق "إمانويل كانط" اصطلاح **المثالية التجريبية** Idéalisme empirique على مذهب من يقول: إن وجود الأشياء في المكان خارج الفكر أمر مشكوك فيه، أو أمر لا يمكن البرهان عليه، أو أمر باطل ومستحيل. وذلك في مقابل مثاليته هو وهي **المثالية المتعالية أو الصورية**، وهي التي تقول إن المكان والزمان والمقولات إطارات قبلية موجودة في العقل وبفضلها يدرك العقل مضمون التجربة[2]. وأولى صور هذه المثالية التجريبية في نظر "كانط" هي **مثالية "ديكارت" الإشكالية** التي لا تسلّم إلاّ بوجود حقيقة واحدة لا يتطرّق إليها الشكّ وهي " أنا موجود". وثانية صورها **مثالية "بركلي" الوثوقية**

[1] - أندري لالاند، **الموسوعة الفلسفية**، ترجمة، خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، باريس، ط2، 2001، ص 585.

[2] - عبد الرحمن بدوي، **موسوعة الفلسفة، الجزء الثاني**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1984، ص 440.

أو القطعية (الدوغمائية) التي تنكر وجود المكان، وتنكر وجود الأشياء المادية المتعلّقة به. ولا شكّ أن حكم "كانط" على نظرية ديكارت ليس مطابقا للحقيقة، لأن هذا الفيلسوف لم يشكّ في وجود العالم الخارجي إلاّ شكّا مؤقتا، وما يسمّيه كانط بمثالية ديكارت الإشكالية يرجع في الحقيقة إلى القول: أن معرفة العالم الخارجي ليست معرفة مباشرة، وإنما مبنية على الاستدلال العقلي، وليس في ذلك أي إنكار لوجود العالم الخارجي.

وقريب من ذلك أيضا مذهب "كوندياك" الذي قال أنه لا يشكّ في وجود الحقائق المادية، بل يشكّ في إمكان إدراكها بالملاحظة المباشرة، لأنه لا يمكن البرهان على وجودها في مذهبه إلاّ بالنظر والاستدلال. إنّ مثالية كانط مثالية متعالية، تقرّر أن جميع الظواهر دون استثناء تصورات أو تمثيلات عقلية (Représentations).

د- ويطلق اسم المثالية على مذاهب فلسفية أخرى كمذهب "فيخته" ومذهب "شلينج"، ومذهب "هيغل"، ومن عادة مؤرخي الفلسفة أن يسموا مثالية فيخته بالمثالية الذاتية، ومثالية شلينج بالمثالية الموضوعية، ومثالية هيغل بالمثالية المطلقة.

ه- والمثالية في علم الأخلاق: هي القول أن في الإنسان استعدادا فطريا يحمله على الاحتفاظ للمثل الأعلى بمكان ممتاز في نفسه، ومن أهم مبادئها تحكيم الضمير في العمل الأخلاقي، والاعتماد على الفكر والعاطفة في إصلاح ما في الطبيعة والمجتمع من شرّ.

و- والمثالية في علم الجمال: هي مقابلة للواقعية، وتطلق على المذاهب التي تقرّر أن هدف الفن ليس مجرّد محاكاة للطبيعة، وإنما هو تعبير عن مثل أعلى، أي تمثيل لطبيعة خيالية موافقة لمنازع الفكر. وجميع أنواع الفن محتاجة إلى تصور المثل العليا ولكن بدرجات متفاوتة.

ي- المثالية الاجتماعية: أطلق هذا المصطلح أولا على ما تصوره "باركلي" من معاني الإصلاح والتقدّم الاجتماعي، وعلى أعماله الإنسانية والتهذيبية، مثلما استخدمه الفرنسي "أوجين فورنير" في كتابه " المثالية الاجتماعية"، باعتباره المذهب الذي يقرّر أن للتطور الاجتماعي منطقا خاصا به، وأن ازدياد شعور الإنسانية بذاتها يجعلها قادرة على نسج مصيرها بيدها، وعلى إبدال ما يشتمل عليه العالم الحاضر من أحوال اقتصادية آلية ولا أخلاقية بأحوال يسيطر عليها العقل، وتسودها الحرية[1].

[1] - جميل صليبا، مرجع سابق، ص 339.

3- مذاهب التيار المثالي:

أشرنا سابقا إلى أن للمثالية مذاهب متباينة منها المثالية الإشكالية (مثالية ديكارت)، والمثالية الدوغمائية (مثالية باركلي)، والمثالية النقدية المتعالية (مثالية كانط)، والمثالية المطلقة (مثالية هيغل)، والمثالية الموضوعية (مثالية أفلاطون)، وعلى العموم يمكن تصنيفها إلى ثلاثة أصناف هي: المثالية الذاتية بمختلف أشكالها، والمثالية الموضوعية والمثالية النقدية أو المتعالية. ومهما اختلفت المصطلحات التي يستخدمها هذا الفيلسوف أو ذاك، بالنظر إلى خصوصية كلّ نسق من الأنسقة المثالية، مثل: العقل، الوعي، الروح، الفكر، أو الذات، أو الأنا، أو الشعور أو النفس، مهما اختلفت المصطلحات فإن "...الذهن هو ما يظن المثالي ألاّ شيء آخر غيره"[1]، بمعنى أن الحقيقة الأولى في الكون هي ما يشير إلى الذات مثل: العقل أو الفكر، فالمثالية " هي الاعتقاد بأن الذهن هو وحده الحقيقي، أما المادة بكلّ مظاهرها، فما هي إلاّ مضمون ذهني وبالتالي فهي متوقفة على الذهن في وجودها".

هذا ونشير إلى أن البنية الفكرية للتيار المثالي تتحدّد بأربعة معايير أساسية تمكّن من تمييزه عن التيار المادي وهي:

- معيار الأسبقية والاستقلال في الوجود: من السابق في الوجود، الفكر أم الواقع؟ وهل وجود العالم الخارجي مشروط بوجود الفكر أم له استقلاله؟

- معيار متّصل بمصدر المعرفة: ما مصدر معارفنا؟ العقل أم التجربة؟

- معيار متّصل بمصدر القيم (الأخلاقية والجمالية): ما حقيقة قيمنا الأخلاقية والجمالية؟ ما مصدرها؟ هل هي ثابتة ونابعة من ذواتنا أم أن مصدرها الواقع الاجتماعي، ومن ثمة فهي متغيرة؟

- معيار متّصل بنوع التصور الخاص عن الإنسان والكون: ما حقيقة العالم؟ هل يرجع إلى جوهر واحد هو المادة، أم هناك ثنائية المادة والروح وهي غير قابلة للاختزال؟

وسنعمل على توضيح ذلك من خلال النماذج التالية: المثالية الموضوعية لأفلاطون، والمثالية الاشكالية لديكارت، والمثالية النقدية لكانط.

[1] - برتراند راسل، **تاريخ الفلسفة الغربية، الكتاب 3، الفلسفة الحديثة**، ترجمة محمد فتحي الشنيطى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1977، ص 315.

3-1- المثالية الموضوعية: أفلاطون (427ق م- 347 ق م):

بينا سابقا أن الموقف المثالي يتميّز بإعطاء الأولوية والصدارة للذات أو الوعي بالنسبة للواقع أو العالم الخارجي، فبأي معنى يعتبر أفلاطون مثاليا انطلاقا من المعايير الأربعة السابقة؟

أ- معيار الأسبقية والاستقلال في الوجود: يعتبر أفلاطون مثاليا لأنه يقول بوجود عالم مثالي فيما وراء العالم المادي المحسوس، ويسميه "عالم المثل" أو عالم المعقولات، وهذا العالم هو أصل كلّ شيء في الكون. وسبب تسمية مثالية أفلاطون ب "الموضوعية" هو قوله أن مقرّ المعقولات أو المثل لا يوجد بذهن الإنسان بل بعالم علوي مفارق للمادة[1].

ب- المعيار المتصل بمصدر المعرفة: يرى أنّ "المعرفة تذكر والجهل نسيان" بمعنى أن معرفتنا ناتجة عن الواقع المحسوس، لأن هذا الأخير مجرد شبح وظلّ لعالم المثل، والمعرفة التي تنتج عنه وهم وظنّ. وفائدة العالم المحسوس هو أنه يساعدنا على تذكّر الحقائق المثالية. فالحقيقة اليقينية هي ما استطاع العقل أن يتوصّل إليه بالتدبّر والتأمل الهادف لتحرير النفس من الحواس والعودة إلى أحضان الآلهة. ومعنى ذلك أن الذات – عند أفلاطون- هي مصدر معارفنا.

ج- المعيار المتصل بمصدر القيم: يقول أفلاطون في مجال الأخلاق والجمال بنظرية المحاكاة، أي أن كلّ ما يوجد في الطبيعة (وردة مثلا) ما هي إلاّ نسخ باهتة وجزئية ناقصة. إذ الجمال الحقيقي يوجد في عالم المثل بينما الجمال الموجود في عالمنا ما هو إلاّ ظلّ للعالم العلوي. ونفس الشيء في مجال الخير، الذي مقرّه عالم المثل ولا يتمّ إدراكه إلاّ بالعقل، أي أن الفلاسفة وحدهم القادرون على الوصول إليه.

د- المعيار المتصل بالتصور الخاص عن الكون والإنسان: تتجلّى مثالية أفلاطون في قوله بالثنائية في كلّ شيء، أنطولوجيا (عام المحسوسات وعالم المعقولات)، و الإنسان (روح وجسد)، وفي المعرفة (معرفة ظنية وهمية مصدرها الحسّ ومعرفة يقينية مرتبطة بالعقل القادر على تأمّل المثل)، بل هناك ثنائية حتى في الأنطولوجيا الاجتماعية (عامة الناس وخاصة وهم الفلاسفة).

3-2- المثالية الإشكالية: ديكارت (1596-1650):

بأي معنى يمكن فهم أن فلسفة ديكارت فلسفة مثالية وذات طابع إشكالي في مثاليتها؟

[1] - جون لويس، **مدخل إلى الفلسفة**، ترجمة أنور عبد الملك، دار الحقيقة للطباعة والنشر، بيروت، ص 38.

أ- معيار الأسبقية والاستقلال في الوجود: انطلق ديكارت من الشك في رحلة البحث عن الحقيقة، وكان لذلك تأثير كبير على تصوره المثالي، الذي يعطي للفكر أو الذات أسبقية في الوجود، بل ويجعل وجود العالم مرهون بإثبات وجود الفكر. وقد انتهت رحلة الشك الديكارتي إلى الإقرار بأسبقية الفكر على الوجود، وهذا ما يعبّر عنه بالكوجيتو الديكارتي: أنا أفكر إذن أنا موجود. فالعالم الخارجي ليس له وجود مستقل عن الذات المفكرة.

ب- المعيار المتصل بمصدر المعرفة: آمن ديكارت بأهمية العقل وكان من رواد العقلانية الحديثة، فمعارفنا مصدرها العقل لأن به من الأفكار الفطرية ما يساعدنا على تحصيل المعرفة عن طريق الاستنباط العقلي وبمساعدة الحدس الذي هو نور فطري، فالعقل هو أعدل قسمة بين الناس.

ج- المعيار المتصل بمصدر القيم: ربط ديكارت، من منطلق نزعته العقلية، الممارسة الأخلاقية بالعقل الذي بواسطته يميّز الإنسان بين الخير والشر. ومثالية ديكارت تتجلّى في كون عقلانيته تستنجد في مجال الأخلاق كما في مجال التأملات الميتافيزيقية بإرادة الله وعنايته بدل ربط هذه القيمة الأخلاقية أو تلك بواقع الإنسان، فاهتماماته العلمية، وحذره من عيون لجان التفتيش جعله يكتفي بالمنظور الديني للأخلاق الشيء الذي طبعه بروح التفكير المثالي.

د- المعيار المتصل بالتصور الخاص عن الكون والإنسان: من معالم النسق الديكارتي المثالي أخذه بالتصور الثنائي للكون والإنسان. الكون في نظره صادر عن علة أولى هي الله. لكن ديكارت بخلاف المثالية الدوغمائية، جعل الكون منذ اللحظة الأولى خاضعا لمبدأ الحتمية، ويحمل مبدأ تفسيره في ذاته، فالعالم الفيزيائي ليس حقيقيا ومستقلا عن الإنسان فحسب، بل إن سلوكه خاضع للقوى الآلية، ومهمة العالم هي اكتشاف تلك القوانين. ومن هنا يقول ديكارت بثنائية في الإنسان أيضا: العقل والمادة، وهما متمايزان، ويصعب إرجاع أحدهما إلى الآخر. فهناك البدن الذي يرتبط بالشكل، ويحتلّ حيّزا، وهناك النفس التي لا تتأطر بمكان، بل ترتبط بفعاليات لامادية: الشك، الإدراك، الإرادة، ومن طبيعة النفس التأمل والتفكير، أما البدن أو المادة فطبيعتها الامتداد.

3-3- المثالية النقدية: كانط (1724-1804م)

رغم أن كانط وجه سهام نقده للكوجيتو الديكارتي وهو أساس نسق ديكارت الفلسفي، ولمثالية بركلي اللامادية، واصفا إياها بالمثالية الصوفية الحالمة، إلاّ أنه لم يسلم هو الآخر من الوقوع في المثالية، وكانط

في الحقيقة لا ينكر ذلك، ولكنه يؤكّد أم مثاليته قد أحدثت "ثورة كوبرنيقية" تجاوزت الإطار الفكري لسابقيه، وأطلق على مثاليته اسم "المثالية النقدية". فبأي معنى يعتبر كانط نفسه مثاليا؟

أ- معيار الأسبقية والاستقلال في الوجود: حاول كانط تجنّب الوقوع في المثالية الذاتية التي تجعل العالم الخارجي مشروطا بوجود الذات، ونشاط الذهن وهذا ما عبّر عنه حين قال: " ...ما أطلقت عليه اسم المثالية لا يمسّ وجود الأشياء. ولم يخطر ببالي قطّ أن أشكّ في وجودها"[1]. وهذا يعني أن كانط يعترف بالوجود المسبق للأشياء، أي للموضوعات لكننا لا نعرف شيئا عن حقيقتها، وكل ما نعرفه هو ظواهرها. و في نقده لديكارت يؤكّد أن التفكير لا يمكن تصوره بدون موضوع للتفكير، أنا أفكر في موضوع ما إذن أنا موجود، وهو يميّز بين مجال الظواهر التي يمكن للعقل أن يعرفها (مجال الفهم)، ومجال الشيء في ذاته أو الميتافيزيقا التي لا يمكن معرفة حقيقتها (مجال العقل الخالص).

ب- المعيار المتصل بمصدر المعرفة: المعرفة في نظر كانط هي معرفة بالظواهر، وهي نتاج تنظيم الحدوس الحسية بواسطة المقولات العقلية القبلية (مقولات الفهم الفطرية)، ولذلك يقول أن الحدوس الحسية بدون أطر عقلية عمياء عمياء، والأطر العقلية بدون حدوس حسية جوفاء" . إلاّ أن كانط ما لبث أن انتهى إلى موقف لا أدري حين جعل "الأشياء في ذاتها" مستعصية على الفهم والمعرفة، كما انتهى إلى موقف مثالي حين اعتبر أن العقل لا يدرك إلاّ ما يلائم بنيته وطبيعته، فالعقل لا يرى في الطبيعة إلاّ ما ينتجه هو.

ج- المعيار المتصل بمصدر القيم: مثالية كانط تتجلى في منظوره الأخلاقي من جهة، ونظرته للجمال والتجربة الفنية من جهة أخرى، حيث يجعل كانط الذات (العقل) مصدر القيم الأخلاقية والأحكام الجمالية. ففي مجال الأخلاق اعتبر الفعل الأخلاقي فعلا قطعيا لا شرطيا، وهو فعل صادر عن العقل في استقلال عن أي اعتبار، والقانون الأخلاقي لا يأخذ بعين الاعتبار إلاّ الواجب الذي يصدر عن العقل(الفعل لذاته)، فالفعل يكون أخلاقيا متى كان بدافع الواجب العقلي وليس طبقا لمصلحة أو غاية معينة مهما كانت، أما إذا اقترن بغاية أو مصلحة فهو فعل لا أخلاقي. ومن هنا حاول أن يبرّر وجود الله تبريرا أخلاقيا عن طريق "العقل العملي" المسؤول عن القواعد الأخلاقية، ما عجز عنه "العقل النظري". لأن الواجب يفترض وجود جزاء وضمن ذلك الجزاء هو الله، فقلب بذلك العلاقة بين الدين والأخلاق، حيث عوض أن يؤسس الأخلاق على الدين أقام اللاهوت على أساس الأخلاق.

[1] - إمانويل كانط، **مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة**، ترجمة نازلي اسماعيل حسين، فتحي الشنيطي، تقديم عمر مهيبل، موفم للنشر، الجزائر، 1991، ص 51.

د- المعيار المتصل بالتصور الخاص عن الكون والإنسان: تنبني فلسفة كانط على أساس من الثنائيات التي يصعب إلغاء أحد طرفيها أو حل التعارض بينهما، ومن بين هذه الثنائيات نجد: ثنائية الحساسية والفهم، الظاهر والباطن، الضرورة والحرية، الظاهرة والشيء في ذاته. والعقل في نظر كانط لا يمكن أن يشتق من التجربة خلافا لما اعتقد فيه التجريبيون والماديون الآليون، لأنّ ما بالعقل من مقولات هي في أساسها أولية وفطرية سابقة على التجربة، فالعقل بالفطرة يملك 12 مقولة، لذلك لا مانع من العمل على تحليل بنية العقل البشري قبل أن نكلفه بمهمة البحث في هذا المجال أو ذاك، ومهمة التحليل ممكنة دون حاجة إلى ربط العقل بالعالم الخارجي. ومن معالم مثالية موقفه أيضا تمييزه بين عالم الظواهر القابلة للإدراك من طرف العقل وعالم الشيء في ذاته المستعصي على المعرفة، ممّا فتح الباب أمام نزعة لاأدرية، رغم أنه كان يريد تفنيد ريبية دفيد هيوم.والثنائية نجدها في تصوره لعلاقة الإنسان بالطبيعة، فالطبيعة تخضع لمبدأ الحتمية بينما الطبيعة البشرية تعتبر عالم الحرية.

4- مناقشة:

يبدو ممّا سبق أن التيار المثالي يعطي الأولوية والصدارة على المستوى الأنطولوجي، للوعي، الفكر، العقل، الذات، الروح...على حساب الواقع المادي، والعالم الخارجي الذي في نظر بعض المثاليين ليس سوى نسخة من العالم الحقيقي،عالم المثل، وعلى المستوى المعرفي يعتبر المعرفة اليقينية هي المعرفة الصادرة عن العقل والاستدلال في مقابل الظن والوهم الذي تقدمه الحواس. وبذلك يكون التيار المثالي قد قلّل من دور الحواس والمدركات الحسية في المعرفة وفي فهم وتفسير حقيقة الوجود. وعلى المستوى الأخلاقي والجمالي وحتى المنطقي لا يكفي التركيز على الإرتقاء بالجانب الفكري والروحي، بل يجب الاهتمام بالمادة أيضا، فالاهتمام بصورة الفكر غير كاف بل يجب الاهتمام أيضا بمادته أي محتواه ونتائجه.

كما أن المعرفية ليست قبلية فطرية فقط، بل هي أيضا بعدية تجريبية حسية، بدليل أن تقدّم المعارف العلمية جاء نتيجة المنهج التجريبي. ثمّ إن التيار المثالي أوقع الإنسان تاريخيا في الاعتقاد بمركزيته ومركزية الأرض، هذه المركزية التي قوّضتها النتائج العلمية بثورتين ثورة فلكية (كوبرنيقوس) وثورة في العلوم الإنسانية (التحليل النفسي).

خاتمة:

يستفاد ممّا سبق أن المثالية تيار فكري من أقدم التيارات الفكرية، التي حاولت أن تقدّم تصورا للكون والإنسان، وتفسّر طبيعة العلاقة بين الفكر والواقع، مرجعة الوجود إلى مبدأ واحد هو الفكر أو العقل أو الروح أو الذات، والمعرفة إلى نشاط وفعالية العقل الذي يتحكّم بدوره في مختلف القيم الأخلاقية والجمالية.

المحاضرة الثالثة: التيار المادي(المادية) Matérialisme

الهدف: التعريف بالتيار المادي وبنيته الفكرية

مقدمة:

عرفنا في المحاضرة السابقة- التيار المثالي- أن المثالية نوعان: مثالية أنطولوجية أو ميتافيزيقية، ومثالية إبستمولوجية، الأولى تغطّي تاريخيا المثالية الموضوعية التي تعتبر العالم الموضوعي من طبيعة روحية، أما الثانية فهي تمثّل إحدى أطروحات المثالية الذاتية، التي تعتبر أن العالم مشكّل من تمثلاتنا. وإذا كانت المثالية الابستيمولوجية تقابلها النزعة الواقعية التي تقول بأن العالم له وجود مستقلّ عن تمثلاتنا، فإنّ ما يقابل المثالية الأنطولوجية أو الميتافيزيقية هو النزعة المادية أو التيار المادي. وإذا كان التيار المثالي يتميّز بتعدّد المذاهب فإن التيار المادي هو الآخر يتفرّع إلى عدّة أقسام ومذاهب، فهناك من المدارس الفرعية في المذهب الطبيعي بقدر ما في المذهب المثالي تقريبا. فمذاهب التيار المادي متعدّدة في إطار التصوّر المادي للكون والإنسان والمجتمع والتاريخ والمعرفة، وانعكاسات ذلك على القيم بما فيها الأخلاقية والجمالية. فما مفهوم المادة؟ وماذا نعني بالتيار المادي ؟ وما هي البنية الفكرية لهذا التيار؟

1- حول مفهوم المادة والمادية : Matière -Matérialisme

المادة في اللغة كلّ شيء يكون مددا لغيره، ومادة الشيء أصوله وعناصره التي يتركّب منها حسية كانت أو معنوية كمادة البناء، ومادة البحث. وللمادة في اصطلاح الفلاسفة عدّة معان:

المادة هي الجسم الطبيعي الذي نتناوله على حاله أو نحوّله إلى شيء آخر لغاية معينة مثل الخشب الذي يصنع منه التمثال، فهو مادته، أمّا صورة التمثال فهي شكله. والمادة في الاصطلاح الأرسطي هي المعنى المقابل للصورة. ولها وجهان: الوجه الأول هو دلالتها على العناصر غير المعينة التي يمكن أن يتألّف منها الشيء، وتسمّى مادة أولى أو هيولى، وهي إمكان محض لا تنتقل إلى الفعل إلاّ بقيام الصورة فيها. والوجه الثاني دلالتها على المعطيات الطبيعية والعقلية المعينة التي يعمل الفكر على إكمالها وإنضاجها. فكلّ موضوع يقبل الكمال بانضمامه إلى غيره، فهو مادة، وكلّ ما يتركّب منه الشيء، فهو مادة لذلك الشيء حسيا كان أو معنويا، ومن هذا القبيل قولنا: إن مادة المعرفة هي المعطيات الحسية التي

يتألّف منها مضمون الفكر[1]. والمادي Material فهو المنسوب إلى المادة، وهو مقابل للروحي، تقول: القوى المادية والقوى الروحية، ومقابل للصوري، تقول: الحقيقة المادية والحقيقة الصورية.

والتيار المادي أو المادية فهو التيار الذي يفسّر كلّ شيء بالأسباب المادية. ويطلق في علم ما بعد الطبيعة على من يقولون بأن المادة وحدها هي الجوهر الحقيقي، الذي به تفسّر جميع ظواهر الحياة، وجميع أحوال النفس، وبهذا المعنى المادية تقابل المثالية. فالتيار المثالي يضمّ كلّ الاتجاهات والنزعات الفلسفية التي تشترك في القول بأنّ الأصل في الموجودات هو المادة، لا الروح أو العقل أو الشعور. ويمكن بيان المذاهب المادية بحسب العصور على النحو التالي:

- المادية في العصر اليوناني والروماني: نجد طاليس وهيرفليطس وديمقريطس، وكذلك المدرسة الرواقية والأبيقورية، ولوكريتوس يقرّرون أن الموجود ينحلّ إلى أجزاء لا تتجزّأ هي الذرات، والذرات تنتقل في الخلاء. كذلك يرون أن كلّ موجود يخضع لقوانين ضرورية، والإنسان يندرج في هذا الوضع. ويهدف هذا المذهب إلى الصّراع ضدّ الخرافات وضدّ الخوف من الموت[2]. كما عرف القرن 18 ظهور تيار مادي اشتهر باسم **"المادية الميكانيكية"**، ومن أقطابه ديدرو ودولباخ، وهلفسيوس، ولامتري...وهي تتصوّر الكون على أنه كل مؤلف من أجسام مادية، فيه تجري أحداث الطبيعة وفقا لقوانين موضوعية ضرورية. والزمان والمكان الحركة تعدّ أحوالا للمادة. وكل ظواهر الوعي (الفكر) تتوقف على التركيب الجسماني للإنسان. وامتد هذا التيار خلال القرن 19 مع فيورباخ. وعلاوة على ذلك نجد **"المادية الجدلية"** كما صاغها كلّ من كارل ماركس وفردريك انجلز خلال القرن 19.

ومعلوم أن مصطلح "مادية" له علاقة- بطريقة أو بأخرى- بمصطلحات فلسفية هي أساسا أسماء لمذاهب فلسفية ذات نزوع مادي. ولكن مع ذلك يتميّز كلّ مذهب بخصوصيته التي قد تصل إلى درجة التناقض والتضارب مع غيره من المذاهب وفيما يلي بعض الأمثلة:

- المذهب الطبيعي: Naturalism- Naturalisme : يرى هذا المذهب أن الطبيعة هي الحقيقة الوحيدة في الكون ممّا يترتب عنه " نزعة ...تستبعد أي مبدأ فوق طبيعي..."[3]. ويؤكد أنصار هذا

[1] - جميل صليبا، المعجم الفلسفي، الجزء الثاني، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982، ص 306

[2] - عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلاسفة، الجزء الثاني، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط 1، 1984، ص 407.

[3] - هنتر ميد، الفلسفة أنواعها ومشكلاتها، ترجمة فؤاد زكريا،مؤسسة هنداوي، د ت، ص 95.

المذهب أن نظام الطبيعة يخضع لقوانين قابلة لأن تعرف إذا ما استعملنا الأساليب العلمية. وفي رأيهم الإنسان جزء من الطبيعة لذلك فهو يخضع أيضا للنظام الطبيعي.

- المذهب التجريبي: Empiricism- Empirisme: يرى هذا المذهب أن المعرفة ككل مشتقة من التجربة، وبالتالي رفض القول بالأفكار الفطرية التي قال بها العقليون، كديكارت مثلا، حيث يؤكّد جون لوك (1632-1704) أن الذهن صفحة بيضاء وما من شيء في العقل إلاّ وقد سبق وجوده في الحس أولا، ونفس الشيء ذهب إلية دافيد هيوم (1711-1776)، ومعلوم أن هناك أكثر من علاقة بين تجريبية لوك وهيوم والمادية الفرنسية في القرن 18 من جهة، والنزعة الوضعية الكلاسيكية والمعاصرة من جهة ثانية.

- المذهب الواقعي: Realism- Réalisme: هو الآخر مذهب -خاصة في مجال علاقة الفكر بالواقع- يعطي للواقع أولوية على الفكر، وبالتالي الوجود غير الفكر ولا يمكن أن نستخرجه من الفكر، أي لا يمكن أن نشتق المادة من الفكر على خلاف ما يعتقد المثاليون.

- المذهب الوضعي: Positivism- Positivisme: يأخذ أنصار هذا المذهب بنزعة تجريبية متطرفة حيث العلم لا يدرس إلاّ ما هو محسوس، ويخضع للتجربة والملاحظة أما ما عدا ذلك فهو مجرّد أوهام ميتافيزيقية سابقة على المرحلة الوضعية (أوغست كونت)، ومجرّد لغو لا معنى له (كارناب) الشيء الذي فنده تطوّر العلوم الطبيعية. ونشير هنا إلى أن الماركسية رفضت المذهب الوضعي.

بناء على ماسبق نلاحظ نشعّب مشارب وفروع التيار المادي الذي يتميّز بالتباين والاختلاف لدرجة التناقض. فماركس مثلا يعتبر المادية القديمة نزعة ساذجة، وأن مادية القرن 18 ما هي إلاّ نزعة آلية ميتافيزيقة، كما أن المذهب العضوي في نظر ماركس مجرّد نزعة مثالية رغم ما يظهر من تمسكه بالتجربة ومناهج العلم.

2- مقولة المادة بين العلم والفلسفة:

2-1- المادة كمقولة علمية:

المادة كمقولة علمية لها أشكال عديدة مثل: الطاقة، والضوء، والكهرباء، والمغناطيس، وكلّ الموجودات العضوية واللاعضوية تنحلّ في الأخير إلى ذرّات صغيرة جدّا. ويرى علماء الميكروفيزيا أو الفيزياء الذرية أن الكون يرجع في الأساس إلى: " ثلاثة أشكال أساسية للمادة تسمّى ذرّاتها: الالكترونات،

البروتونات، النيوترونات. وكلّ المواد- حية كانت أو غير حية- تتكوّن من هذه الأنواع الثلاثة من الجسيمات الأولية"[1]. لكن الأبحاث الميكروفيزياء ما لبثت أن أثبتت أن هذه العناصر الثلاثة ليست هي أصغر ما في الكون.

2-2- المادة كمقولة فلسفية:

المفهوم العلمي السابق عن المادة، مخالف لتصوّر الفلاسفة عن المادة ذلك: " أن ما يحدّد المقولة الفلسفية للمادة هو وجودها باستقلال عنّا، هو أن تكون الشيء الذي تضعنا حواسنا في علاقة معه. ممّا يسمح في النهاية بالتحقق المادي من المعرفة..."[2] . بمعنى أن المادة في اللغة الفلسفية تشير إلى العالم الخارجي الموجود في استقلال عنّا كذوات عارفة، فالصفة الوحيدة للمادة التي تقوم عليها المادية الفلسفية إنما هي الواقع الموضوعي الموجود خارج وعينا. وعليه تكون المادية في المعنى العام، التيار الذي يرى أن المادة وحدها هي الجوهر الحقيقي الذي به تفسّر جميع أحوال النفس، حيث يعتبر الوعي أو العقل عنصر ثانوي ومشتق من المادة، فالوعي انعكاس للعالم الخارجي.

ومعلوم أن تعريف كهذا لا يعني تماثل المذاهب المادية، بل هناك فروقات كبيرة بينها يصعب معها التوفيق بينها كما هو الحال في الفرق بين المادية الميكانيكية والمادية الجدلية. لكن مع ذلك هناك نقاط تقاطع رئيسية بين الفلاسفة الماديين هي ما يشكّل أسس بنية التفكير المادي، مثل رفض القول بثنائية في الكون، وإرجاع كلّ شيء إلى المادة، ثم جعل العالم الخارجي مصدرا لمعارفنا، وسابق في الوجود عن ذواتنا العارفة، ثمّ ربط تفكير الإنسان ووعيه ومزاجه وقيمه الاخلاقية والاجتماعية...بظروف بيئته الطبيعية والاجتماعية والتاريخية. وهذا ما سنبينه من خلال النماذج التالية:

أ- المادية اليونانية : (القرن 6 ق م وما بعده)

ابتداء من القرن 06 ق م عرف الفكر الإنساني مع اليونان طفرة سمحت بالانتقال من التفكير الأسطوري إلى التفكير الفلسفي المعتمد على اللوغوس، وقد كانت الخطوات الأولى لهذا التفكير ذات نزوع مادي واضح، وهذا ما عبّر عنه أرسطو حين قال: " لقد اعتقد العدد الأكبر من أولائك الذين تفلسفوا لأوّل مرّة بأنّ أصول الأشياء توجد في شكل مادة" . فالفلاسفة اليونان في بحثهم عن حقيقة الكون أرجعوه إلى

[1] - فيرنر هيزنبرغ، المشاكل الفلسفية للعلوم النووية، ترجمة أحمد مستجير، مراجعة محمد النادي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1972، ص 106.

[2] - جاك ميلو، ميشال سيمون، لينين الفلسفة والثقافة، دار الحقيقة للطباعة والنشر، لبنان، 1971، ص 35.

أصل مادي، رغم اختلافهم حول طبيعة " المادة الأصلية" التي يتكوّن منها العالم. فقد أرجع طاليس (631 قم -550 ق م) أصل الكون إلى الماء، رأى هيرقليطس (535 ق م- 475 ق م) فيلسوف التغيّر والصيرورة أنّ العنصر الخلاّق في الكون هو "النّار"، حيث منها ينبثق كلّ شيء وإليها يعود كلّ شيء. أما ديموقريطس (470 ق م- 361 ق م) فاعتقد أن أصل الكون في حقيقته لا يرجع إلى ماء أو نار أو الأسطقسات (أي العناصر) الأربعة الماء، النار، الهواء والتراب، بل إن في الكون حقيقتان أوليتان هما: الذرات والفراغ[1].

وأخذ أبيقور (270-341 ق م) بالمذهب المادي الذري، حيث أكّد هو الآخر أن كلّ الأشياء مكوّنة من ذرّات، وأنّ العالم آلة ميكانيكية محكومة بأسباب طبيعية لها نتائجها الطبيعية، بل إن النفس ذاتها ليست إلاّ ذرّات تتفرّق عند الموت. ومع الرواقيين اتخذت النزعة المادية طابعا متطرّفا وأكثر وضوحا، وأساس تصوّرهم للطبيعة هو أن ليس في الوجود غير المادة، واعتبروا أن العالم خاضع لقوانين ثابتة، يسيّره حتما قانون العلّة والمعلول.

يتبيّن إذن أن جلّ فلاسفة اليونان يعبّرون في تفكيرهم عن تصوّر مادي للعالم، ولعلّ ذلك عنصرا أصيلا في الثقافة اليونانية طبع بطابعه حتّى الفلاسفة المعدودين في إطار التيار المثالي، فأفلاطون مثلا قال "بالهيولى" باعتبارها "مادة رخوة"[2] وليس لها شكل وجعلها المادة الأولية الخام التي صنع الله منها العالم. ومعلوم أيضا أن أرسطو اعترف بأن العالم المحسوس هو الوجود الحقيقي رافضا نظرية أستاذه أفلاطون في المثل. يتضح مما سبق أن الفلسفة اليونانية في بذورها الأولى صدرت عن نزعة مادية، وبقيت تلك البذور بادية حتى لدى بعض الفلاسفة مثل أفلاطون.

ب- المادية الميكانيكية (ق 18 م)

يقصد بالمادية الميكانيكية التصور المادي الذي بلوره مجموعة من فلاسفة القرن 18و- وجلّهم فرنسيون- وذلك تحت تأثير ثلاثة عوامل أساسية:

[1] - أحمد أمين، زكي نجيب محمود، قصة الفلسفة اليونانية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة مصر، 2018، ص 55.

[2] - يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، 2014، ص 100.

- التقدّم العلمي المحقق خلال القرنين 17 و18 (كوبرنيك، كيبلر، ديكارت، جاليلي) وانتهى بنظرة ميكانيكية للكون مع نيوتن (1643- 1727) الذي أرجع مختلف ظواهر الطبيعة إلى مبدأين: المادة والحركة.

- المذهب التجريبي الانجليزي خاصة فلسفة جون لوك ونظريته للمعرفة، حيث انتقد نظرية ديكارت وأكّد على دور التجربة. وأثرت هذه الفلسفة على ممثلي مادية القرن 18م، كوندياك، لاميتري، ديدرو دلامير. وتوجت -فيما بعد- مادية القرن 18م بفلسفة فيورباخ (1804- 1872) الذي أعاد إحياء الفلسفة المادية، وأثر في ماركس وانجلز مؤسّسي المادية الجدلية.

ج- من المادية الميكانيكية إلى المادية الجدلية:

رغم الأهمية الفلسفية للمادية الميكانيكية المتمثلة في تقديم تصوّر جديد عن الكون والإنسان والمجتمع والتاريخ، وهو تصوّر يرتكز على العلم والعقلانية ويتطلّع إلى العدالة الاجتماعية والمساواة الإنسانية، ورغم الأهمية التاريخية لمادية القرن 18م التي سجلت نهاية للفلسفة الكلاسيكية ذات المنزع المثالي، رغم كلّ ذلك فإن مادية القرن 18م تشكو من النقص في جوانب عديدة.

إنّ تأثر ماركس بجدل هيغل كان له دور كبير في بلورة معالم الفلسفة الماركسية بتصوّرها الدينامي والجدلي للكون والإنسان والمجتمع والتاريخ، متجاوزة بذلك التصوّرات الميتافيزيقية للمثالية والنظرة الآلية السلبية (الستاتيكية) لمادية القرن 18م التي أصبحت بالمقارنة مع المادية الجدلية مادية كلاسيكية. ومن أهمّ النقاط التي سجلت فيها المادية الجدلية قطيعة مع المادية الميكانيكية الكلاسيكية ما يلي:

- الارتباط بالعلم: ترتبط المادية الجدلية بالعلم، ليس بعلم الميكانيكا وحده كما فعلت مادية القرن 18م بل بكلّ العلوم بما فيها العلوم الإنسانية، ونظرية التطوّر في البيولوجيا، الاقتصاد، علم الاجتماع، التاريخ...الخ وذلك لتجاوز الطابع التأمّلي الميتافيزيقي لمادية القرن 18م ومادية فيورباخ، ممّا يجعل المادية الجدلية مادية علمية.

- الجدل والتطوّر: المادية الجدلية مادية قائمة على التطوّر والتغيّر بخلاف مادية القرن 18 المتميّزة بالجمود والسكون، لأنّ الطبيعة آلة كبيرة تسير وفق قوانين ثابتة أزلية تعيد إنتاج نفسها بطريقة آلية. فالإنسان في المادية الجدلية ليس ماهية ثابتة ومجرّدة، بل هو واقع اجتماعي وسياق تاريخي (إنسان إمّا عبد (في المجتمع العبودي)، أو قنّ (في المجتمع الاقطاعي)، أو بروليتاري (في المجتمع الرأسمالي)، ومن هنا أهمية المادية التاريخية كأساس لفلسفة ماركس.

- جدلية الذات والموضوع: اعتبرت المادية الميكانيكية أن المعرفة التي لا تصدر عن التجربة لا قيمة لها، وكان هذا الموقف ردّ فعل متطرّف اتجاه الفلاسفة المثاليين، فنقطة الانطلاق في نظر فيورباخ ليس العقل أو الفكرة بل الواقع الحسّي العيني، فالروح تجد مكانها في المادة، لكن المادية الجدلية قامت في الأساس على النقيض من هذه الأطروحة الميكانيكية عن علاقة الذات (العقل) بالواقع (الطبيعة والتجربة). فهي وإن انطلقت هي الأخرى من اشتقاق الفكر من المادة، إلاّ أنها تؤكّد أنّ للفكر دور فعّال وخطير في حياة الإنسان من حيث هو كائن عارف (علاقته بالطبيعة)، ومن حيث هو كائن منتج (علاقاته الاجتماعية). فقد بيّن ماركس في المادية الجدلية أن المعرفة ليست مجرّد انعكاس للواقع، والإنسان ليس مجرّد وعاء سلبي للانطباعات الآتية من العالم الخارجي، بل المعرفة نتاج التفاعل الحاصل بين العقل والعالم الخارجي. فقد أدرك ماركس الدلالة الخاصة للجدل الهيغلي، الذي استطاع بواسطته أن يحوّل مادية فيورباخ التأمّلية إلى مادية فاعلة[1]، تمكّن الإنسان من تغيير الطبيعة وتغيير نفسه بتغيير ظروفه الطبيعية والاجتماعية، فالوسط يصنع الإنسان بقدر ما يصنع الإنسان وسطه كما يقول ماركس.

3- مناقشة:

واجهت التيار المادي عدّة انتقادات أهمّها:

- العقل ليس مجرّد صفحة بيضاء بل يتضمّن الحدّ الأدنى من المفاهيم، بل وينتج العديد من المفاهيم.

- المعطيات المادية بدون تصوّرات ذهنية مجرّد مادة خام لا قيمة لها.

- الفكر ليس كما اعتقد الماديون مجرّد صورة من صور المادة، وأن التفكير ما هو إلاّ نتيجة للتراكم الكمّي المادي الذي يتحوّل إلى كيف، لأنه كيف نفسّر اختلاف أنواع التفكير والثقافات، إذا كانت العمليات العقلية والدماغية مجرّد عمليات كيميائية وعصبية؟ فالمادة واحدة فمن أين يأتي التنوّع في صنوف تفكير البشر[2].

[1] - جون لويس، مدخل إلى الفلسفة، ترجمة أنور عبد المالك، الدار المصرية للكتب، مصر، 1978، ص 222.

[2] - عبد الوهاب المسيري، الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، دار الفكر المعاصر، دمشق، سوريا، ط04، 2010، ص 14.

- كيف يفسّر التيار المادي العلوم المعيارية والتقويمية مثل الأخلاق والجمال وقيمها مثل الخير والشرّ والقبح والجمال؟ باعتبارها أحاسيس وعمليات روحية ووجدانية ذات قيم معنوية تتجاوز العمليات الفسيولوجية المادية الصّماء (كالشرف، النخوة، المبادئ والقناعات...الخ).

خاتمة:

يستفاد ممّا سبق أنّ التيار المادي مرتبط من ناحية التأسيس باليونان والفلاسفة الانجليز، وله عدّة مذاهب، ومن أهمّ مبادئه المادة والتجربة أساسين وحيدين للوجود، ومن أكبر المؤاخذات التي تواجهه نكرانه للجانب الروحي والروحاني للوجود، أو على الأقلّ جعله مجرّد انعكاس للعمليات المادية.

المحاضرة الرابعة: التيار العقلاني (العقلانية)Rationalisme

الهدف: التعريف بالتيار العقلاني وبنيته الفكرية

مقدمة:

عرفنا سابقا أن المثالية تتفرّع إلى مثالية أنطولوجية أو ميتافيزيقية وهي تقابل المادية التي تعتبر أن المادة وحدها موجودة، ومثالية إبستيمولوجية تقابل الواقعية التي تعتبر أن العالم له وجود مستقلّ عن تمثلاتنا له. من الناحية الأنطولوجية تكون المثالية استدلال مرتبط بالمادة والروح، ومن الناحية الابستمولوجية تكون استدلالا مرتبطا بتصوّر الحقيقة. فعلى المستوى الأنطولوجي الميتافيزيقي المثالية تقابل المادية، وعلى المستوى الإبستمولوجي تقابل الواقعية.

أمّا العقلانية Le rationalisme فتقابل التجريبية Empirisme وهي تعبّر عن موقف ابستيمولوجي (نظرية المعرفة)، وهذا يدلّ على أن هناك ارتباط وثيق بين العقلانية والمثالية لكن دون أن يعني ذلك أنه لا يمكن الفصل بينهما.

فما هي العقلانية أو التيار العقلاني؟ ما هي مبادئه ومسلّماته ؟

1- التعريف بالتيار العقلاني:

يعرّف لالاند في موسوعته الفلسفي التيار العقلاني فيقول: " العقلانية بالمعنى الميتافيزيقي، مذهب يقول بعدم وجود أي شيئ بلا موجب، بحيث أنه لا يوجد شيئ لا يكون معقولا، قانون إن لم يكن واقعا". من ثمّ: من زاوية مصادر المعرفة، في مقابل التجريبية (الامبريقية).

ويقول أن العقلانية مذهب يرى أنّ كلّ معرفة يقينية تصدر عن مبادئ لا تقبل الدّحض، قبلية، بيّنة، تكون حصيلتها اللاّزمة، ولا يمكن للحواس أن تقدّم عنها سوى نظرة ملتبسة وظرفية، نظرة عابرة إلى الحقيقة.[1]

والتيار العقلاني أو العقلانية اتجاه فكري يرى أن العقل هو المصدر الأول للمعرفة، ويزعم أنه يمكن الوصول إلى معرفة طبيعة الكون والوجود عن طريق الاستدلال العقلي. فالعقلانية تعتبر العقل قوّة

[1] - أندري لالاند، الموسوعة الفلسفية، ترجمة خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، باريس "2، 2001، ص 1172.

وملكة قبلية فطرية تحتوي على مجموعة من المبادئ: كمبدأ الهوية، ومبدأ عدم التناقض ومبدأ الثالث المرفوع، التي تعتبر مبادئ عامة، كلّية، مطلقة، ضرورية واضحة بذاتها، ومشتركة لدى جميع العقول البشرية، كما تعتبر بديهية تقوم عليها البرهنة. وترتبط النزعة العقلانية بمجالات متنوعة ، بالمجال اللاهوتي، وبمجال نظرية المعرفة وبمجال القيم.

2- مسلّمات التيار العقلاني:

إن قراءة الإنتاج الفكري لبعض من ينتمي إلى العقلانية من الفلاسفة والمفكرين، توحي بأن هذه النزعة تقوم على أساس مصادرة جوهرية واحدة، هي أن الأصل الأوّل للعلم الإنساني ومصدره الأسبق، هو العقل، وليس التجربة. ومعنى ذلك أن المعارف التي يملكها الإنسان مهما تسلسلت حلقاتها، ترتدّ في نهاية الأمر، إلى منبع أول و واحد هو العقل. ولهذه المسلّمة مرتكزات جزئية هي:

- العقل البشري ليس صفحة بيضاء- كما اعتقد التجريبيون- بل هو مجموعة من المبادئ الفطرية والمفاهيم والمقولات القبلية بدونها تتعذّر المعرفة.

- آليات المعرفة الصحيحة هي الحدس والاستدلال (الاستنباط، الاستقراء) والبداهة والوضوح ومبادئ العقل: كمبدأ الهوية، عدم التناقض والثالث المرفوع.

- التفكير هو أساس الوجود الإنساني، لهذا يقول ديكارت: أنا أفكّر إذن أنا موجود.

- المرجع الوحيد في تفسير مختلف قضايا الوجود والمعرفة والقيم والكون هو العقل.

- قواعد المنهج الصحيح للوصول إلى المعرفة/الحقيقة هي: البداهة، التحليل، التركيب، المراجعة.

3- اتجاهات التيار العقلاني :

أ- العقلانية الكلاسيكية اليونانية:

قامت العقلانية السقراطية على أساس فكرة جوهرية، وهي ضرورة معرفة النفس لنفسها أو الذات لذاتها (أيها الإنسان أعرف نفسك بنفسك). والعقلانية من وجهة نظر سقراط ليست فقط ممارسة لفعل التعقّل والتفكير، وإنّما تكمن في تغيير الوعي البشري من خلال مختلف المعارف والمفاهيم التي يكتسبها، فقد آمن سقراط بأنّ العقل هو الأداة والوسيلة التي تمكّن من فهم الوجود الإنساني والطبيعي. غير أنّ عقلانية

سقراط ذهبت إلى أبعد الحدود من خلال تبنّي تصوّر أوّلي حول وجود عالم المعقولات باعتباره عالم الحقائق الكلّية التي لا تدرك إلاّ بالعقل كواسطة وحيدة[1].

ب- العقلانية التقليدية الإسلامية:

تمثّل عقلانية ابن رشد (1126- 1198م) نموذجا للعقلانية الإسلامية إلى جانب عقلانية الكندي والفارابي وابن سينا....الخ. وتقوم عقلانية ابن رشد على مجموعة من المبادئ والقواعد:

- التوفيق بين الشريعة والحكمة، بين العقل والنقل.

- الشرع يوجب النظر العقلي.

- النهي عن الحكمة مخالف للشريعة.

- مطابقة الحكمة للشريعة بالتأويل.

- التأويل لأهل العلم فحسب.

- الله يعلم الكليات والجزئيات خلافا لقول أرسطو.[2]

ج- العقلانية الحديثة:

يمكن تحديد الفلسفة العقلانية الحديثة في فلاسفة التنوير والنهضة الأوروبية من خلال: ديكارت، سبينوزا، ليبنتز...وقد تميزت بإدخال المناهج الرياضية في المعرفة العقلانية.

4- رواد التيار العقلاني:

من أبرز الشخصيات التي أسّست التيار العقلاني نجد:

أ- أبو الوليد ابن رشد (1126م-1198م): فيلسوف، فقيه، طبيب، وقاضي عربي أندلسي مسلم، درس الشريعة وفق المسلك الأشعري، دافع عن الفلسفة وردّ على مواقف أبو حامد الغزالي (1111-1058م) صاحب كتاب " تهافت الفلاسفة"، وصحّح بعض المفاهيم الفلسفية لإبن سينا والفارابي. يعتبر ابن رشد

[1] - الخشت، محمد عثمان، العقلانية والتعصّب، نهضة مصر للطباعة والنشر، مصر، ط1، د س، ص 25-26.

[2] - النجار رمزي، الفلسفة الغربية عبر التاريخ، دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، ط2، 1979، ص 283-298.

من أكبر المدافعين عن الفلسفة والاشتغال بها، وقد بيّن أنه لا تعارض بينها وبين الشريعة. يعتبر من أكبر شرّاح أرسطو، تميّز بفلسفته العقلانية التي سمين بالرشدية[1].

ب- باروخ سبينوزا (1632- 1677م): فيلسوف هولندي ذو نزعة عقلانية، يعتبر من أبرز الفلاسفة العقلانيين في القرن 17م، تأثّر بديكارت ونزعته العقلانية ومختلف آرائه في قضايا قواعد المنهج، والشكّ المنهجي وقضية ثنائية النفس والجسد، هذه الفكرة التي انتقدها سبينوزا، واعتبر أن النفس والجسد كيان واحد متّصل. ويعتبر سبينوزا من أكثر المفكّرين اضطهادا من قبل قوميته اليهودية التي اتهمته بالكفر والإلحاد، إلى درجة تعرّضه إلى محاولات اغتيال من طرف متديّن يهودي متطرّف، خاصّة عندما صرّح بأنّ اليهودية والمسيحية تستندان إلى عقائد جامدة وطقوس فارغة من المضمون ولا معنى لها ، موجّها انتقادات إلى التوراة والإنجيل. من أهمّ كتبه "رسالة في اللاهوت والسياسة"، "كتاب الأخلاق".

ج- غوتفريد ليبنتز (1646- 1716م): فيلسوف ألماني تقوم فلسفته على فكرة التناغم أو التناسق الكلّي في الكون والوجود. يعتبر مكتشف حساب التفاضل. في نظرية المعرفة يرى أن المعرفة الصحيحة يجب أن تتميّز بصفتين أساسيتين وهما: الضّرورة والكلية. فكلّ معرفة صحيحة لا بدّ أن تتّصف بصفتي النسقية والانسجام. وكانت لليبنتز آراء في مختلف القضايا الفلسفية[2].

5- نموذج شخصية عقلانية:

رينيه ديكارت (1595- 1650) فيلسوف ورياضي فرنسي رائد النزعة العقلانية الحديثة، مؤسس الفلسفة الحديثة ومبدع الهندسة التحليلية، بالنسبة له الحكمة هي مسألة المعنى الصحيح، وعبارته الشهيرة " أنا أفكّر إذن أنا موجود" تدلّ على أنني أوجد بواسطة الممارسة الفكرية.

يتحدّد البرنامج الفلسفي لديكارت في ثلاثة محاور:

- تأسيس منظومة معرفية وعلمية يقينية

- تطبيق هذا العلم تطبيقا ميدانيا

[1] - عبد الرحمن بدوي، الموسوعة الفلسفية، ج1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لبنان، ص 19-32.

[2] - المرجع نفسه، ج2، ص 387-397.

- إيجاد ميتافيزيقا تقدّم حلولا لمسائل الخالق والمخلوق والله والوجود

ويمكن تلخيص فلسفة ديكارت بناء على هذه المحاور في مايلي:

أ- قواعد المنهج: سعى ديكارت من خلال كتاب: "مقال في المنهج"، و" قواعد لهداية العقل" إلى تأسيس منهج علمي دقيق للبحث عن الحقيقة، وقد استلهم مبادئه من المنهج الرياضي نظرا لتكوينه الرياضي، وقد حدّد أربع قواعد لتحصيل اليقين المعرفي (قواعد المنهج) وهي: قاعدة البداهة، قاعدة التحليل، قاعدة التركيب، وقاعدة المراجعة.

ب- الشك الديكارتي: الشك الديكارتي شك منهجي غايته الوصول إلى الحقيقة، فالبحث عن الحقيقة يلزمنا، كما يقول ديكارت، ولو مرّة واحدة في حياتنا أن نشكّ في جميع الأشياء ما أمكننا الشكّ" وقد طال شكّ ديكارت العالم الخارجي والحقائق الرياضية ووجود الله، لكنّه لاحظ أنه في الوقت الذي يشكّ فإنه يفكّر، ولمّا كان يفكّر فإنه موجود، لأنه لا يعقل تصوّر فكر بدون ذات حاملة له، أي دون ذات مفكّرة، لأنه من التناقض أن تفترض أن المفكّر غير موجود في الوقت الذي يقوم فيه بإعمال الفكر، وهذا ما يعبّر عنه بالكوجيتو الديكارتي: أنا أفكّر إذن أنا موجود.

ج- الحقائق السرمدية: أولى النظريات التي تحدّث عنها ديكارت هي نظرية خلق الحقائق السرمدية، والتي مؤدّاها أن الله هو خالق ماهيات المخلوقات ووجودها، وهو الذي أوجدها في الوجود حرّا مختارا، وحدّد لها غايات ومصائر معيّنة، وهذه الحقائق السرمدية البنيات المنطقية والتراكيب الرياضية وماهيات الأشياء والقيم الأخلاقية.

د- الحجة الوجودية: الوجود الإلهي متجانس، فبما أنني موجود ناقص، دليل على وجود شيء كامل كحقيقة مطلقة.

ه- النفس: يؤمن ديكارت بثنائية النفس والجسم، فالنفس تحمل كلّ الظواهر النفسية والشعورية والعقلية، في حين الجسم يتّصف بكلّ صفات المادة كالامتداد، وهما مختلفان اختلافا جذريا.

6- مناقشة:

تعتبر النزعة العقلانية أن "العقل أعدل قسمة بين الناس" فهل هذا صحيح؟. هذه القاعدة صحيحة نسبيا، لأن التوافق والتقارب بين العقول ليس حقيقة مطلقة، ليس متاحا دائما.

ثم لو كانت المبادئ العقلية فطرية موروثة، عامة ومطلقة كما يعتقد العقلانيون، فهذا يستلزم منطقيا تساوي الجميع في العلم بها، وبالتالي تساوي جميع الناس في مبادئهم وأفكارهم لكن الواقع يثبت العكس، فهناك اختلاف كبير بين الناس.

إن العقل وإن كان ضروريا لكلّ معرفة، فإنه مع ذلك ليس كافيا وحده لأن الآليات والمقولات العقلية تحتاج دائما إلى معطيات وقرائن مادية وحسية كمادة خام للاستثمار فيها معرفيا وعلميا. لذلك يعاب على التيار العقلاني عدم اهتمامه بدور الحواس والإدراكات الحسية في فهم الوجود، وتركيزه على العقل ومبادئه ومقولاته ومفاهيمه.. كما أن الحقائق التي لا تخضع للفهم العقلي والتعقّل لا يستلزم بالضرورة أن تكون خرافات وأساطير، بل قد تكون حقائق مطلقة تتجاوز الاستيعاب العقلي.

لقد كان للمذهب العقلاني حضور قوي وتواجد كبير في مختلف الحضارات الإنسانية الإسلامية والغربية، وقد كان لإبن رشد وديكارت الأثر البالغ في هذا السياق.

خاتمة:

بناء على ما سبق يتضح أن التيار العقلاني تيار فكري يرجع المعرفة الإنسانية إلى مصدر واحد هو العقل، ويؤمن بأن التفكير هو أساس الوجود الإنساني، وبالتالي يكون العقل هو الأساس الأول لتفسير كل قضايا الوجود والمعرفة والقيم. ومن أهمّ المؤاخذات التي تواجهه تقليله لدور الحواس والتجربة الحسية وجعلها تابعة لمبادئ عقلية قبلية.

المحاضرة الخامسة: التيار التجريبي (التجريبية)Empirisme

الهدف: التعريف بالتيار التجريبي وبنيته الفكرية

مقدمة:

عرّفنا سابقا أن التقابل بين التيار المثالي والتيار المادي يتجلّى على مستويين، الأول أنطولوجي ميتافيزيقي والثاني معرفي ابستمولوجي، حيث تتمّ على المستوى الأنطولوجي مقابلة المثالية بالمادية، أو المثالية بالواقعية. أمّا ابستيمولوجيا فالعقلانية تقابلها التجريبية أو التيار التجريبي. فما هي التجريبية أو التيار التجريبي ؟ وما هي مبادئه ومسلماته الأساسية ؟

1- التعريف بالتيار التجريبي:

يعرّف لالاند في موسوعته الفلسفية التيار التجريبي أو التجريبية Empirisme بأنها مصطلح يشير إلى كلّ التيارات الفلسفية التي تؤكّد أنّ كلّ معرفة مصدرها التجربة والخبرة الحسية، وهي بذلك مقابلة للعقلانية القائلة أن المعرفة يمكن أن تستمدّ من العقل والحدس. فالتجريبية أو الخبرية (الامبريقية) هي الاسم النوعي لكلّ المذاهب الفلسفية التي تنفي وجود أوليات ومصادرات عقلية بوصفها مبادئ معرفية بيّنة لدى الفرد، مثال ذلك جون لوك مقابل ديكارت[1]. ومن الناحية الابستمولوجية يقابل التيار التجريبي المذاهب القائلة باشتمال العقل على مبادئ خاصة به، مختلفة عن قوانين الأشياء، سواء أكانت هذه المبادئ فطرية أم غير فطرية[2].

التيار التجريبي إذن يشير إلى النظرية الفلسفية القائلة بأن جميع أنواع المعرفة مستقاة من الخبرة. وقد قام بتنمية هذا التيار مجموعة متعاقبة من الفلاسفة البريطانيين بصفة خاصة من أهمّهم جون لوك، ودافيد هيوم وجون ستوارت مل.

[1] - أندري لالاند، الموسوعة الفلسفية، ترجمة خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، باريس "2، 2001، ص 341.

[2] - جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت،لبنان، الجزء الأول، 1982، ص 245.

2- مسلمات التيار التجريبي:

يرتكز التيار التجريبي في الحقيقة على مسلّمة واحدة أساسية، ذات مظهرين. الأساسية هي أن المصدر الجوهري لكلّ أنواع المعرفة ، هو التجربة، وهي مسلّمة تتفرّع إلى جزأين الأول نقدي يتمّ فيه استبعاد التيار العقلاني من أصوله، والثاني تأسيسي يتمّ فيه بناء المذهب التجريبي، وهما:

- العقل لا يستطيع أن ينشئ بالفطرة المعاني والتصورات، وليست له القدرة على خلع صفة الصدق على ما يبتدعه من معرفة.

- العلم في كلّ صوره يرتدّ إلى التجربة.

أ- العقل لا يستطيع أن ينشئ بالفطرة المعاني والتصورات، وليست له القدرة على خلع صفة الصدق على ما يبتدعه من معرفة.

رفض التجريبيون التسليم بالأفكار الفطرية الموروثة، والمبادئ العقلية البديهية والقواعد الأخلاقية الأولى التي لا تأتي اكتسابا، وأنكروا الحدس الذي يزعم أهله أنهم يدركون به الأوليات الرياضية والمنطقية. وذلك لأن عقل الإنسان في نظرهم **" صفحة بيضاء"** ليس فيها أي معرفة سابقة على التجربة. ثمّ إن معرفة الملموس تسبق المجرّد والخاص يسبق العام، ولا نصل إلى المجرّد إلاّ انطلاقا من الملموس، يقول جون لوك: إن الأبيض ليس الأسود، واللذة ليست الألم، فلا يعقل القول أننا نسلّم بهذه القضايا الملموسة والجزئية، لأننا نسلّم بقضايا أخرى مجرّدة وعامة هي بمثابة المبدأ بالنسبة إلى القضايا الأولى. ومن هنا لا يمكن أن تكون المبادئ فطرية، لأن الألفاظ المكونة لها غير فطرية. وعلى هذا الأساس رفض التجريبيون أن يكون العقل قادرا على الوصول إلى أي علم يقيني ثابت بطريقة الفطرة، وما تجود به من أوليات كلية، فالأحكام العقلية تتغير بتغير الزمان والمكان، ولو صحّ وجود هذه المبادئ الكلية لتساوى في العلم بها الجميع في كل زمان ومكان.

ب- العلم في كلّ صوره يرتدّ إلى التجربة.

إن فكرة السببية (لكلّ حادثة سبب) ليست فكرة عقلية بل هي نتاج ملاحظات الإنسان لتغيّر الأشياء، كملاحظة العلاقة بين درجة الحرارة والتمدّد، فليس في العقل شيء لم يوجد من قبل في الحسّ كما يقول جون لوك. فمبدأ السببية وما يتضمّنه من ضرورة لا يدرك العقل بداهته ويقينيته بالفطرة كما يقول العقلانيون، بل بالتجربة والملاحظة التي سمحت بالربط بين الطرفين ربطا قويا، وقد عبّر عن ذلك دافيد

هيوم بالتتابع الثابت الناتج عن العادة، فمشاهدة "ب" وهي تأتي في أعقاب "أ" لمرات عديدة يحدث فينا كما يقول هيوم عادة التفكير في "ب" إذا ما أدركنا "أ"، والخبرة التي نمارس بها هذه العادة الفكرية هي مصدر فكرتنا عن الضرورة[1]. وبناء على ذلك تكون الأفكار البسيطة التي يكونها الفكر من التجربة الحسية، و أيضا الأفكار المركبة التي ينتجها الفكر البشري نفسه عن طريق ترابط الأفكار البسيطة، كلها نتاج التجربة الحسية.

إن التجريبية أساسا نظرية في المعرفة، لكن تأثيرها كان كبيرا في ميدان الأخلاق كذلك، وتفسير هذا هو أن التجريبيين كان عليهم أن يضعوا نظرية أخلاقية تتسق مع تفسيرهم العام للمعرفة، وليس لأنهم كانوا على الدوام مهتمين بالأخلاق بصفة خاصة. فالمدركات الخلقية (كالصواب والالزام والواجب وما إليها) لا بدّ- إذا صدقت التجريبية- أن تكون ممّا يمكن أن يستمدّ من الخبرة كغيرها من الأفكار كائنا ما كانت. لكن استمداد الأفكار الخلقية من الخبرة غير ممكن في نظر العقليين، ففي مقدورنا أن نرى بالمشاهدة أن رجلا يتصرّف على نحو فيه نكران للجميل، لكننا لا نستطيع أن نرى على نحو شبيه بهذا أن نكرانه للجميل خطأ (فعلا غير أخلاقي)، ذلك أن فكرتنا عن ارتكاب الخطأ –فيما يقول العقليون- لا تقوم على الخبرة، ونحن لا نعرف أن نكران الجميل خطأ إلاّ لأنّ العقل يدرك عن طريق الحدس الرابطة القبلية بين هاتين الفكرتين (نكران الجميل والخطأ). فمبادئ الأخلاق الأساسية بديهية، بمعنى أنها لا يمكن أن تبرّر، وليس هناك ما يدعو إلى تبريرها لا بالحجة العقلية ولا بالمشاهدة.

وكان ردّ التجريبيين في القرن 18 على هذه النظرية الحدسية هو –بتعبير دافيد هيوم- أن " الأصوب هو أن نقول أننا نشعر بالخلقية من أن نقول أننا نحكم عليها"، فالأفكار الخلقية مستمدّة من خبرة "داخلية"، صحيح أننا لا نشاهد خطأ فعل ما لكننا نشعر به، وهذا الشعور هو الذي نعبّر عنه حينما نقول أن الفعل خطأ.وقد كانت هذه الوجهة من النظر (التي كثيرا ما تسمّى نظرية الحسّ الخلقي) مرتبطة في تجريبية القرن 18 على نحو يميّزها عن مذهب المنفعة القائل بأن واجبنا الوحيد هو إنتاج أكبر قدر من السعادة.

3- مراحل تطوّر التيار التجريبي:

الموقف التجريبي لم يكن يُعبَّر عنه على الدوام بنفس الوضوح الذي نستطيع به التعبير عنه الآن، وإنما كانت الصياغة الدقيقة لهذا الموقف هي ذاتها نتيجة تطوُّر تاريخي طويل؛ فلم تكن لدى التجريبيين

[1] - فؤاد كامل، جلال العشري، عبد الرشيد الصادق، الموسوعة الفلسفية المختصرة، مراجعة زكي نجيب محمود، دار القلم، بيروت لبنان، ص 151.

القدامى تلك النظرة الواضحة إلى العلم التجريبي التي لدينا الآن، بل إنهم كثيرًا ما كانوا يتأثرون بالمذاهب العقلية، وفضلًا عن ذلك فإن فلسفتهم كثيرًا ما كانت تشمل أجزاءً نعدُّها اليوم منتمية إلى مجال العلم التجريبي، كالنظريات الخاصة بأصل الكون أو بطبيعة المادة.

ومِن هذا القبيل **مذاهب التجريبيين اليونانيين** التي نجدها في الفترة السابقة على سقراط، وكذلك في الفترة المتأخرة للفلسفة اليونانية. ولقد كان أبرز هؤلاء الفلاسفة هو ديمقريطسDemocritus ، وهو معاصر لسقراط، يُعَد أول مَن طرأت بذهنه الفكرة القائلة إن الطبيعة تتألف من ذرات، ومن هنا كان يحتل مكانة في تاريخ العلم فضلًا عن تاريخ الفلسفة. ولقد كان تصوره لأصل الكون رائعًا؛ لأنه يفترض حدوث تطور عن طريق الجمع بين الذرات في تركيبات معقَّدة؛ ففي الأصل لم تكن هناك إلا ذرات مفردة تنطلق في كل الاتجاهات خلال المكان، وعن طريق المصادمات العارضة تكوَّنت مجموعات أدَّت بمُضيِّ الوقت إلى تكوين أجسام من شتى الأنواع والأشكال. وقد عادت هذه الأفكار إلى الظهور، بعد حوالَي مائة عام، عند أبيقور، الذي انتقل مذهبه في العصور الرومانية إلى الأجيال التالية، عن طريق كتاب لوكريتيوس Lucretius الشعري المشهور: «في طبيعة الأشياء .«De rerum natura وقد قدَّم أبيقور وصفًا مختلفًا إلى حدٍّ ما لحركة الذرات؛ إذ افترض أن الذرات كانت في الأصل تهبط كلها في خطوط مُتوازية وفي زمانٍ لا متناهٍ، حتى انحرفت بعض الذرات عرضًا عن مساراتها، واصطدمت بعضها بالبعض، وقد أدَّى هذا الحادث العارض إلى بدء التطور.

كذلك كان من بين **الفلاسفة العرب المسلمون** مفكِّرون تجريبيون كالحسن بن الهيثم، الذي اشتهر بمؤلفاته في ميدان علم البصريات الفسيولوجي. أما في **العصور الوسطى الأوروبية،** فلم يكن يشتغل بالفلسفة إلا رجال الدين؛ ولذا لم يكن في الفلسفة المدرسية مُتَّسع للنزعة التجريبية. أما أولئك الذين حاولوا بشجاعة أن يدافعوا عن الموقف التجريبي، مثل «روجر بيكن «Roger Bacon فقد كانوا مُتشبِّعين بطرق التفكير اللاهوتية إلى حدٍّ لا يسمح بتشبيههم بالتجريبيين الآخرين في العصور المتقدمة أو المتأخرة. وليس المقصود من هذه الملاحظة أن نقلِّل من الأهمية التاريخية لهؤلاء المفكرين، بل إننا في الواقع لو قِسنا فضل الشخص بمقدار انحراف أفكاره عن الآراء الشائعة في بيئته، لكان دفاع هؤلاء عن النزعة التجريبية جديرًا بإعجاب كل مَن كانوا تجريبيين في عصور أقرب إلى الروح التجريبية.

ومن السهل أن يفهم المرء الرابطة الوثيقة بين المذهب العقلي وبين اللاهوت؛ فنظرًا إلى أن المذاهب الدينية ليست مبنية على الإدراك الحسي، فإنها تقتضي مصدرًا للمعرفة خارجًا عن الحواس. ومن هنا كان الفيلسوف الذي يزعم أنه اهتدى إلى معرفة من هذا النوع حليفًا طبيعيًّا لرجل اللاهوت، وقد استغلَّ

اللاهوتيون المسيحيون مذهبَي أفلاطون وأرسطو، فأصبح أفلاطون هو فيلسوف الجماعات ذات العقلية الأقرب إلى التصوف، على حين أصبح أرسطو فيلسوف المدرسية «السكولائية». ولقد أدَّت علاقة صاحب المذهب العقلي باللاهوت إلى شعوره دائما بالسموّ على التجريبي من الناحية الأخلاقية، غير أن العداء بين الجماعتَين، وإن يكن كل طرف منهما يشعر به بقوة لا تقلُّ عن شعور الآخر، لا يتخذ صورة تماثلية؛ فعلى حين أن صاحب المذهب العقلي يعُد التجريبي ذا مستوًى أخلاقي أدنى، فإن التجريبي يرى صاحب المذهب العقلي مُفتقرًا إلى الحس السليم.

وبظهور **العلم الحديث، في حوالَي عام 1600م**، بدأ المذهب التجريبي يتخذ شكل نظرية فلسفية إيجابية قائمة على أسس متينة، يمكن أن تدخل في منافسة ناجحة مع المذهب العقلي، وكان العصر الحديث هو الذي ظهرت فيه أعظم المذاهب التجريبية؛ أعني مذاهب فرانسس بيكون (1561-1626م) وجون لوك (1632-1704م)، وديفيد هيوم (1711-1776م).

لقد وجد الموقف التجريبي أوضح تعبير عنه في فلسفات هؤلاء المفكرين؛ فالفكرة القائلة إن الإدراك الحسي هو مصدر المعرفة ومعيارها النهائي، هي النتيجة التي تؤدي إليها أبحاثهم آخر الأمر. فجون لوك يقول إن الذهن يبدأ وكأنه صفحة بيضاء، والتجربة هي التي تسطِّر هذه الصفحة ما يُكتَب فيها. ومع ذلك فهناك نوعان من الإدراك الحسي: إدراك الموضوعات الخارجية، وإدراك الموضوعات الداخلية. فالنوع الأخير من الموضوعات يُعطى لنا في الحوادث النفسية، كالتفكير والاعتقاد والشعور بالألم أو الإحساس باللون، وهي حوادث نلاحظها بالحس الباطن. ويقسِّم هيوم محتويات الذهن إلى انطباعات وأفكار؛ فالانطباعات تأتي من الحواس، وضمنها الحس الباطن، وأفكار الانطباعات السابقة وذكرياتها. ولا تختلف الأفكار عن الظواهر الملاحظة إلا في طريقة تجمُّعها. مثال ذلك أن الانطباعات المُلاحَظة للذهب وللجبل يمكن أن تُجمَع سويًّا لتكون جبلًا ذهبيًّا، وهو موضوع لم يُلاحَظ، وإن كان من الممكن تخيُّله. وهكذا فإن المذهب التجريبي، على خلاف المذهب العقلي، يجعل للذهن دورًا ثانويًّا هو إقرار النظام بين الانطباعات والأفكار، والنسق المُنظَّم هو ما نُسمِّيه بالمعرفة.

وفي نفس السياق أخذ أهل التجريبية المنطقية (الوضعية المنطقية) على أنفسهم ألاّ يعترفوا بغير الواقع المحسوس الذي يمكن إخضاعه لمناهج الملاحظة والتجربة. واهتمّوا بالفكر باعتباره لغة يتحتّم عليها أن تنطبق مع الواقع الحسي وواقع الأحكام المنطقية. فاعتبروا أن مهمّة الفلسفة هي تحليل قضايا العلم،

والألفاظ والقضايا التي لا يمكن التثبّت منها بالتجربة فهي بدون معنى أو أشباه قضايا، ومن هنا رفض الوضعيون المناطقة الميتافيزيقا.

4- رواد التيار التجريبي: من أبرز شخصيات التيار التجريبي نجد:

- أرسطو طاليس (ق م384-322 ق م): فيلسوف يوناني تلميذ لأفلاطون، من أعظم فلاسفة اليونان، صاحب نزعة واقعية، له عدّة مؤلفات في مختلف المجالات: الميتافيزيقا، الفيزيقا، الشعر، السياسة، الأخلاق....مكتشف المنطق سمّاه: الأورغانون (الآلة التي تعصم الذهن من الخطأ).

- ابن سينا أبو علي (1626-1561): من أكبر فلاسفة الإسلام والأطباء في تاريخ البشرية، من أشهر كتبه: الشفاء، القانون في الطب، الاشارات والتنبيهات، من ممثلي الاتجاه الواقعي التجريبي .

- فرانسيس بيكون (1561- 1626): فيلسوف انجليزي ارتبط اسمه بالمنهج التجريبي وكتابه المشهور: الأورغنون الجديد، يتميّز بنزعته التجريبية الحسية واشتغاله بتنقية التفكير ومناهج المعرفة من أصنام الفكر، ونقده للمنطق الأرسطي الصوري الذي وصفه بالعقم والطوطولوجيا (تحصيل حاصل).

- جون لوك (1704-1632): فيلسوف انجليزي ذو نزعة حسية تجريبية، من فلاسفة العقد الاجتماعي، من مؤلفاته المشهورة: "مقال في الفهم الإنساني" و" عن العقل البشري" اشتهر بمقولته المشهورة: " إذا سألك سائل متى بدأت تفكّر ؟ فيجب أن تكون الإجابة: عندما بدأت أحسّ. لهذا اعتبر لوك عقل الإنسان صفحة بيضاء ، وينكر الأفكار الفطرية والقبلية التي أخذ بها العقلانيون الديكارتيون.

- دافيد هيوم (1776-1711): فيلسوف ومؤرّخ اسكتلندي من أهمّ الفلاسفة التنويريين والتجريبيين، له آراء في مختلف المجالات: نظرية المعرفة، فلسفة العلم، فلسفة الأخلاق والجمال والسياسة، من أهم مؤلفاته: رسالة في الطبيعة البشرية، مبحث في الأخلاق، مقالات سياسية.

5- مناقشة:

من أهمّ الانتقادات التي وجهت للتيار التجريبي إعطاؤه الأولوية في مجال المعرفة والقيم للمدركات الحسية، والتقليل من دور العقل ومبادئه القبلية. وبالتالي قولهم بإمكانية بناء المعرفة بالمعطيات الحسية ودون الحاجة إلى بناء نظري. هذا إلى جانب قولهم بأسبقية موضوع المعرفة على الذات العارفة.

ونتيجة لتطرّف النزعتين العقلانية والتجريبية حاول البعض تجاوز التعارض بين العقلانيين والتجريبيين وهو ما جسدته الفلسفة النقدية لإمانويل كانط الذي اعتبر المعرفة بالظواهر نتاج التفاعل بين الأطر العقلية القبلية والمعطيات الحسية، وهو ما عبّر عنه بالقول: الحدوس الحسية بدون أطر عقلية عمياء، والأطر العقلية بدون حدوس حسية جوفاء.وفي المجال الأخلاقي أرجع الفعل الأخلاقي(الواجب) إلى العقل الفطري والإرادة.

خاتمة:

بناءا على ما سبق يتّضح أن التجريبية تيار فكري قديم، بدأت معالمه الأولى مع أرسطو الذي جعل من الحواس العتبة الأولى للمعرفة، وتطوّر مع فلاسفة وعلماء الإسلام الذين أكدوا على دور التجريب في بناء العلوم والمعارف. وفي العصر الحديث تطوّر هذا التيار مع الفلاسفة الانجليز أمثال جون لوك، ودافيد هيوم وستوارت مل وغيرهم. ويرتكز التيار التجريبي على مسلّمة "العقل صفحة بيضاء" وكلّ المعارف والإدراكات ما هي إلاّ تجريدات لوقائع حسية معطاة في التجربة. ورغم حدود هذا التيار ومآخذه إلاّ أنه ساهم بشكل كبير في تطوير الدراسات العلمية في مجالات العلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية.

المحاضرة الخامسة: التيارات البنيوية (البنيوية)Structuralisme

الهدف: التعريف بالبنيوية وأهم تياراتها

مقدمة:

يشكّل التيار البنيوي على صعيد الفكر العالمي نقطة تحوّل مهمّة، تنبع أهميتها من كونها قد سارت على عكس التيارات الفلسفية التقليدية. وقد ظهر هذا التيار في النصف الأول من القرن العشرين، وما يميزه أنه يهتمّ بدراسة الظواهر وتحليل مستويات الخطاب، فهي تعلن عن نفسها أنها تقدّم بصيرة جديدة ووعيا جديدا بالإنسان وأفعاله.

لقد أصبحت البنيوية تمثل التحوّل الجذري الذي عرفته العلوم الإنسانية في القرن العشرين، ورؤية جديدة لإعادة النظر في التصورات السائدة والتقاليد التي رسختها أفكار القرن التاسع عشر. ففي خمسينيات القرن العشرين أصبحت البنيوية تيارا فكريا عالميا يهتم بالعلوم الإنسانية، فظهرت أعمال تستخدم المنهج البنيوي في اللغويات وعلم النفس والأنثروبولوجيا والنقد الأدبي، وهذا ما جعل منها منهجا أكثر منها فلسفة أو إيديولوجيا. وقد بلغت البنيوية كتيار فكري وفلسفي ذروتها مع نهاية الستينات من القرن العشرين، حيث وصل مدّها إلى مجالات عديدة نذكر منها:

- ميدان اللسانيات: حيث كانت أبحاث دوسوسير، وجاكبسون وتشومسكي نموذجا ومثالا يحتذى به في ميادين أخرى.

- في ميدان التحليل النفسي: كان جاك لاكان Jacques Lacan يشدّ انتباه معاصريه بنظريته الجديدة في هذا المجال الذي كان يبدو، قبل نشر بحوثه، في حالة ركود.

- في الأنثروبولوجيا: شكلت أبحاث كلود لفي شتراوس وتطبيقه للنموذج اللساني تحولا نوعيا في الدراسات الاجتماعية والانثروبولوجية.

- في النقد الأدبي: كان رولان بارث يفتح عهدا جديدا في تفسير النصوص على أساس بنيوي.

- في الفلسفة: كان تأثير ميشال فوكو ولوي ألتوسير وجاك دريدا وغيرهم واضح في المجال الفلسفي.

ولا شكّ أن محاولة الانفتاح على مجالات التيار البنيوي هذه تستدعي لأول وهلة التساؤل: ما هي البنيوية؟ وما هي أصولها ؟ ثم ما هي أهمّ تياراتها؟

1- التعرف بالبنيوية:

أصل كلمة بنيوية Structuralisme مشتق من كلمة بنية structure وهذه الأخيرة مشتقة من الفعل اللاتيني struere بمعنى يبني أويشيّد، فحين يكون للشيء بنية فمعنى ذلك أن لهذا الشيء صورة خاصة، وهو يعني بذلك الهيئة أو الكيفية التي يوجد الشيء عليها. أما في اللغة العربية فبنية الشيء تعني ما هو أصل فيه وجوهري وثابت لا يتبدّل بتبدّل الأوضاع والكيفيات[1]. والقول أن للشيء بنية في اللغات الأوروبية يعني أنه ليس شيئا غير منتظم أو عديم الشكل Amorphe، بل هو منتظم له صورته الخاصة ووحدته الذاتية، وهنا يتقارب معنى البنية مع معنى الصورة.

البنية إذن هي نظام –أو نسق- من المعقولية، فهي ليست صورة الشيء ووحدة أجزائه فحسب، بل هي أيضا "القانون" الذي يفسّر تكوين الشيء ومعقوليته، أي أنها لا تتوقّف عند المستوى التجريبي بل تتعدّاه إلى الكشف عن النسق العقلي الذي يفسّر العمليات الجارية في نطاق مجموعة بعينها [2].

من الناحية الفلسفية يعرّف لالاند البنية بأنها مجموعة من العناصر تكون متضامنة فيما بينها " بحيث يكون كلّ عنصر فيها متعلّقا بالعناصر الأخرى ولا يستطيع أن يكون ذا دلالة إلاّ في نطاق هذا الكلّ"[3]. وبهذا المعنى تكون البنية عبارة عن نسق متكامل من الظواهر مرتبطة فيما بينها بعلاقات محدّدة، بحيث إذا تعرّض عنصر واحد من هذه العلاقات إلى التغيير تحولت باقي العناصر الأخرى.

أما **البنيوية فهي تيار فلسفي – وإن كان جلّ أقطابه في مختلف الميادين يرفضون اعتبار أنفسهم فلاسفة- له تصوّر خاص عن طبيعة الأشياء: المجتمع، نفسية الإنسان، الظواهر البيولوجية، والفيزيائية و....التاريخ، الأسطورة، اللغة، الأدب، الاقتصاد....ويتبنى منهجا ملائما ومستوحى من تصوره الخاص عن الأشياء. فالتصور الخاص، للبنيويين، عن طبيعة الأشياء هو: أن كلّ شيء مهما كان هذا الشيء له "بنية" ويشكّل منظومة أو نسقا له نظامه الخاص وتركيبه الذاتي ووحدته وانسجامه الداخلي وقوانينه التي تضبطه وتسمح باستمراريته.** أما المنهج الذي يتبناه البنيويون والذي يسمّى عادة ب "المنهج البنيوي" فهو الذي يحاول الكشف عن القوانين الداخلية التي تخضع لها بنية

[1] - عمر بهيبل، البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، "2، 1993، ص 16.

- - زكريا إبراهيم،مشكلة البنية، أو أضواء على البنيوية، مكتبة مصر للطباعة،ص 30.[2]

[3] - أندري لالاند، الموسوعة الفلسفية، ترجمة خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، باريس ط2، 2001، ص 1341.

الأشياء ويعمل على الانطلاق من البنية باعتبارها "نسقا معطى" لا يهتمّ بماضيه أو بمستقبله أو ما يمكن أن يطرأ عليه من تغيّر بل يهتمّ فقط بالبنية كما هي معطاة في لحظة الدراسة، ومن هنا جاء العداء البنيوي للمنهج التاريخي المقارن والوصفي لدراسة مختلف الظواهر.

ومن ثمّ تنزع البنيوية نزوعا علمويا برفعها كلّ شكل من أشكال الايديولوجيا وبتمييزها بشكل – أكثر جذرية من النزعة الوضعية- جذري بين الأحكام العلمية الموضوعية، والأحكام القيمية الذاتية.

2- تيارات البنيوية:

يجب الإشارة أولا إلى أن التيار البنيوي المعاصر ليس تيارا متجانسا في مختلف الميادين من جهة وفي كلّ ميدان خاص من جهة أخرى حيث نجد اختلافا يصل إلى درجة التمايز والتباين الجذري بحيث يصعب نهائيا جمع أجنحة هذا التيار تحت إطار واحد: "البنيوية"، بل أكثر من ذلك هناك من يرفض الاعتراف بانتسابه إلى البنيوية مثل الفيلسوف الفرنسي "لوي ألتوسير"، ولتوضيح هذه الإشارة الهامة نقول: إن هناك اختلافا بين البنيويين في كلّ مجال: مثل الاختلاف الموجود في **البنيوية اللسانية** بين بنيوية دوسوسير،و جاكبسون وبين البنيوية التحويلية أو التوليدية لتشومسكي.

كما أن هناك اختلافا بين بنيوية "رادكليف براون" و" كلود لفي شتراوس" في **المجال الأنثروبولوجي،** وفي **مجال السيكولوجيا** هناك اختلاف بين بنيوية "جاك لاكان" وبنيوية " الجشتلتيين" ، وفي **حقل الفلسفة** هناك اختلاف بين "لوي ألتوسير" و "ميشال فوكو"...

كذلك الأمر فيما يخصّ التصوّر الخاص والمنهج المتبع بالنسبة للبنيويين عموما وفي مختلف الميادين، يمكن أن نميّز بين ثلاثة تيارات في البنيوية المعاصرة مختلفة فيما بينها لدرجة التناقض أحيانا. وهذه التيارات الثلاثة هي: بنيوية وظيفية، بنيوية صورية، بنيوية تكوينية.

2-1- البنيوية الوظيفية: structuralisme fonctionnel

يمثلها في السوسيولوجيا الأمريكيان " لانرر شفيلد" و" تالكوت بارسانس" وهي – رغم أخذها بفكرة الكلية والنسقية وعدم فصل عنصر ما عن بنيته- نجدها تتصوّر بنية الظاهرة التي تدرسها تصورا تجريبيا باعتبارها معطاة في التجربة أو الواقع المحسوس، وتهتم هذه المدرسة بالربط بين بنية المجتمع، أو الأسطورة أو.....والوظيفة التي تؤديها، والترابط الشامل بين وظائف المجتمع والذي إذا ما وقع "خلل" بإحدى وظائفه يكون له انعكاس على مجموع بنية المجتمع. ويلاحظ أن الوظيفيين يرفضون

الاهتمام بماضي البنية أو مستقبلها، بمعنى لا يهتمون بأصل البنيات ولا بمشكل تحوّلها بل يهتمون بالمؤسسات أو السلوك....أو الأساطير...كما هي معطاة في الواقع وبذلك تلغي التاريخ[1] . وتسمّى هذه المدرسة كذلك ب "البنيوية التجريبية" ، وبهذا المعنى يمكن إدماج " راد كليف براون" -الذي يرفض القول بوجود البنية خارج ما هو معطى في الواقع- في إطار بنيوية تجريبية، كما يمكن إدماج "مالينوفسكي" الذي يرفض الفصل بين البنية ووظيفتها عند دراسة المجتمعات البدائية في إطار بنيوية وظيفية.

2-2- البنيوية الصورية (الشكلية): structuralisme formel

ترى على العكس من التجريبية والوظيفية أن الدراسة العلمية لأي ظاهرة يجب أن تفصل بين " البنية" كمجموعة من العلاقات، وبين "الوظيفة" أو مضمون تلك العلاقات وهي الأخرى: "عندما تفصل البنية عن الوظيفة فإنها تلغي الحركية التاريخية..."[2].

كما ترفض البنيوية الصورية اعتبار البنية معطاة في الواقع التجريبي وأنه من الممكن ملاحظتها، ومن ثمّ تقول بأن البنيات والتشكيلات المختلفة الموجودة في الواقع (تشكيلة اجتماعية أو أساطير أو لغات...) ما هي إلاّ تعبيرات مختلفة عن واقع "خفي" هو الحقيقي، وإذا ما عرفناه نستطيع تفسير مختلف البنيات والتشكيلات الموجودة والتي وجدت من قبل، والتي يمكن أن توجد، وهذا الواقع الخفي هو ما يسمّيه "كلود لفي شتراوس ب "اللاشعور البنيوي" . ويمثل هذه البنيوية الصورية في اللغة (ديسوسير وجاكبسون وتريتسكوي) وفي علم النفس (جاك لاكان) وفي الفلسفة (ألتوسير وميشال فوكو)، وفي الأنثروبولوجيا (كلود لفي شتراوس) والذي يعتبر ملهم جلّ البنيويين المعاصرين.

2-3- البنيوية التكوينية: structuralisme génétique

يمثلها "لوسيان غولدمان" في الدراسات الأدبية والاجتماعية، و" جان بياجيه" في مجال علم نفس الطفل وسيكولوجية الذكاء، وإبستمولوجيا العلوم عامة والإنسانية خاصة. وهي ترفض الفصل بين "البنية" و "الوظيفة" وتربط بين البنية العضوية وظهور الذكاء وبين نشوء وتطوّر اللغة ونمو الذكاء عند الطفل، وترفض القول ب " لاشعور بنيوي" ثابت لا متغيّر، وتؤكّد على الطابع التحويلي للبنيات التي تتغيّر

[1] - ينظر، لوسيان قولدمان، العلوم الإنسانية والفلسفة، ترجمة، يوسف الانطكي، محمد برادة، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، مصر، 1996.

[2] - المرجع نفسه.

بتغيّر المعطيات والشروط البيئية: الطبيعية منها والاجتماعية، ومن ثمّ لا ترفض " البنيوية التكوينية" التاريخ وهذا يتجلّى حتى في اسمها "تكويني" بمعنى يتطوّر وينمو ويتحوّل.

3- أسس المنهج البنيوي:

تهدف البنيوية عبر منهجها لبنيوي إلى تحقيق وحدة العلم من خلال تعميم التحليل البنيوي عل مختلف المجالات الطبيعية والإنسانية بطريقة تظهر فيها البنيوية كصورة من صور النزعة العلموية الرافضة لكل تحليل فلسفي وايديولوجي، مكتفية بتحليل الواقع كما هو.

يقوم التحليل البنيوي كأداة منهجية على أساس تصور الواقع المدروس باعتباره ينتظم في شكل "بنية" (ترابط العناصر وانتظامها في شكل وحدة). ويميّز المنهج البنيوي بين مستويين في التحليل: التحليل الدياكرونيك* (عبر الزمن) الذي يتتبع حركة الظاهرة وتحولاتها، والتحليل البنيوي الذي يدرس بنيات الأشياء في حالتها الساكنة (السانكرونيك)*. فالتحليل البنيوي لظاهرة ما يتطلّب الاهتمام بالعلاقات الموجودة بين عناصر بنية الظاهرة المدروسة كما هي، وحسب معطياتها الداخلية فقط ومنه تجاوز النموذج القائم على العلية الكلاسيكية (علة واحدة لحدوث الظاهرة) إلى نموذج العلية البنيوية حيث تتداخل العوامل وتتعدّد في إطار البنية الواحدة (مثلا العامل الاقتصادي، الجغرافي،المستوى الثقافي...).

وبناء على ذلك ليست هناك – في التحليل البنيوي- سابق ولاحق، وعنصر هام والآخر تافه، وعنصر أساسي والآخر ثانوي، بل هناك فقط علاقات بين عناصر تشكّل بنية معطاة لها قوانينها الخاصة بها، ومن ثمّ يرفض البنيويون كلّ نزعة تاريخية في دراستهم، بل يعتبرونها عائقا يحول دون فهم موضوعي للظاهرة المدروسة[1]. هذا ويميّز المنهج البنيوي بين الواقع المعطى في التجربة والواقع الحقيقي، فالبنية لا تكشف عن نفسها بصورة مباشرة في الواقع المعاش، بحيث يمكن ملاحظتها ووصفها ، بل هي خفية

*- Diachronique: مشتقة من dia وتعني عبر أو من خلال Khronos وتعني الزمن، ومعناها التركيبي هو: عبر الزمن، ويقصد بالدياكرونيك كلّ ما يشير إلى التطور أو التحول أو التغيّر عبر الزمن.

*- Synchronique: مشتقة من syn الآتية من الاغريقية sun وتهني" مع"، وkhronos وتعني الزمن، ومعناها التركيبي يقصد البنية كما هي موجودة، ويستبعد الاهتمام بالزمن أو التحوّل، أي أن الدراسة السانكرونية تهتم بالأشياء في حالة سكونها وثباتها.

[1] - كلود لفي شتراوس، الأنثروبولوجية البنيوية، ترجمة مصطفى صالح، منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي، دمشق، 19977، ص 328.

يتمّ بناء نماذج نظرية تمكّن من الوصول إليها. وهذا يعني أنها لا تعطى بل تبنى ومن هنا التعارض بين المنهج البنيوي والنزعة التجريبية.

4- مناقشة:

تعرّضت البنيوية لانتقادات عنيفة من طرف مفكرين ينتمون لتيارات فكرية متباينة، مثل الماركسيين والوجوديين، ثم انتقادات من طف الابستيمولوجيين ك "جان بياجيه"...وهذه الانتقادات منها ما له طابع ابستمولوجي ومنها ما له بعد إيديولوجي.

فمن الناحية الابستيمولوجية: نلاحظ أن البنيوية، خاصة بنيوية لفي شتراوس، تنتهي إلى موقف فلسفي تأمّلي عندما تؤكّد على "دوام الطبيعة الإنسانية"[1] أو ما يسميه (اللاشعور البنيوي) وترفض كلّ حركة أو تطوّر أو تقدّم معتبرة ذلك مظاهر خادعة، لأن تعدّد الثقافات واختلاف اللغات...ليست إلاّ صياغات مختلفة لمنطق لاشعوري شامل لكلّ المجتمعات الإنسانية، منطق ثابت لا يتغيّر، وهو سابق على كلّ التجارب الشخصية والحضارة، ويكرّر نفسه في كلّ نشاط. فالعقل البشري بهذا الشكل الثابت –الذي لا يتأثر بظروف المجتمع أو النشاط السيكولوجي أو نمو الجهاز العضوي أو اكتساب اللغة...هذا العقل يذكرنا -على حدّ تعبير جان بياجيه- بمثل أفلاطون[2] وجواهره الخالدة والثابتة التي لا تتأثر بالواقع المحسوس. والواقع أنه لا يمكن عزل بنيات الظواهر عن وظائفها من جهة الواقع الاجتماعي والسياق التاريخي من جهة ثانية إذا أردنا فهم حقيقتها. كما أن البنيويين يغلون في اقتباس نموذج التحليل اللغوي التزامني synchronique وتطبيقه على مختلف الظواهر بطريقة آلية لا تراعي الاختلافات، وبالتالي عزلها عن وظائفها العملية وعدم مراعاة تطورها.

أما من الناحية الايديولوجية: تتطرّف البنيوية في ادعائها تأسيس منهج علمي صارم يمثل نهاية للايديولوجيات، بل إن البنيويين يرون أنه لا دخل للذات (الوعي) مادام المنطق اللاشعوري هو الذي يوجه كلّ نشاط وسلوك، ومن هنا أعلنوا نهاية الذات الإنسانية، إلاّ أننا نرى كما يقول جان بياجيه " أن وجود البنيات هو بحدّ ذاته بنينتها (وإنشاؤها)"[3]، أي دليل على وجود الذات البانية. وبالتالي فالذات ليست مجرّد أسطورة كما قال "لوي ألتوسير". كما أن البنيويين برفضهم للفلسفة باعتبارها خطابا إيديولوجيا

[1] - جان بياجيه، البنيوية، ترجمة عارف منيمنه، بشير أوبري، منشورات عويدات، بيروت، باريس، ط4، 1985ص 88.

[2] - المرجع نفسه، ص 57.

[3] - المرجع نفسه، ص 113.

"قبل علمي" يتناسون المصادرات الفلسفية التي يتبناها البنيويين وعلى رأسهم لفي شتراوس، والمتصلة بتصورهم الستاتيكي لبنيات الظواهر من جهة، وللفكر البشري من جهة ثانية.

خاتمة:

البنيوية تيار فكري له تصوّر خاص عن طبيعة الأشياء: المجتمع، نفسية الإنسان، الظواهر البيولوجية، والفيزيائية و....التاريخ، الأسطورة، اللغة، الأدب، الاقتصاد....ويتبنى منهجا ملائما ومستوحى من تصوره الخاص عن الأشياء. فالتصور الخاص، للبنيويين، عن طبيعة الأشياء هو: أن كلّ شيء مهما كان هذا الشيء له "بنية" ويشكّل منظومة أو نسقا له نظامه الخاص وتركيبه الذاتي ووحدته وانسجامه الداخلي وقوانينه التي تضبطه وتسمح باستمراريته. وتتعدّد التيارات البنيوية بتعدّد مجالاتها (اللسانية، النفسية، الأنثروبولوجية، النقد الأدبي، الفلسفة...) وباختلاف تصوراتها (الوظيفية، الصورية، التكوينية).

المحاضرة السابعة: التيار الوظيفي(الوظيفية)(Fonctionnalisme)

الهدف: التعريف بالتيار الوظيفي وبنيته الفكرية

مقدمة:

من بين التيارات الفكرية التي تندرج ضمن المنحى العقلاني نجد التيار الوظيفي، وهو تيار معاصر حاضر بقوّة في مختلف حقول ومجالات العلوم الاجتماعية والإنسانية (علم الاجتماع، الأنثروبولوجيا، علم النفس، التاريخ، اللغة....). وتعود جذور التيار الوظيفي إلى مرجعيات فكرية (النظرية التطورية) طبعت المعرفة العلمية خلال نهاية القرن 19 ومطلع القرن 20.بالإضافة إلى جهود مجموعة من العلماء امتدّت حتى نهاية ستينيات القرن الماضي، ممّا جعلها تسيطر على الملمح النظري للعلوم الإنسانية والاجتماعية. فما هي الوظيفية ؟ وما هي مبادئها ومنطلقاتها الأساسية؟

1- التعريف بالتيار الوظيفي أو الوظيفية Fonctionnalisme

أصل كلمة وظيفية مشتق من كلمة وظيفة Fonction من الكلمة اللاتينية Functio وتعني الإنجاز والتنفيذ. والوظيفة في معناها العام تعني دور خاص ومتميّز يلعبه عضو في مجموع تكون أجزاؤه، متداعية، مترابطة. هذا المجكوع يمكن أن يكون آليا، وظيفيا، نفسيا أو اجتماعيا (وظيفة الكبد، وظيفة الصفة، وظيفة العملة)[1].

والوظيفية هي مجموعة من التيارات الفكرية في مجالات الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع وعلم النفس واللغة والسياسة والتاريخ....الخ، تعطي الأولوية لمختلف وظائف النسق (البنية) في تحليلها وفهمها. وعلى وجه الخصوص يشكّل المجتمع وفقها نسقا ونظاما متكاملا يلعب فيه كلّ جزء دورا أساسيا بالنسبة للكلّ (مثلا دور الأسرة في المجتمع).

[1] - أندري لالاند، الموسوعة الفلسفية، ترجمة خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، باريس ط2، 2001، ص 437-438.

والمنطلق التأسيسي مأخوذ من الأعمال الأنثروبولوجية والسوسيولوجية والسيكولوجية التي غالبا ما تأثرت في نهاية القرن 19 بالمماثلة العضوية Analogie organique، والمقصود بها مماثلة طريقة تطوّر المجتمع، من الشكل البسيط إلى الشكل المركّب بالطريقة التي ينمو بها جسم الكائن الحي[1].

2- مجالات التيار الوظيفي:

تشمل الوظيفية نظريات مختلفة باختلاف التخصصات:

2-1- الوظيفية في الأنثروبولوجيا: نشأت الوظيفية في الأنثروبولوجيا كما في علم الاجتماع بالتخلّي عن محاولات تفسير البنيات الاجتماعية بأصلها التاريخي وخصوصيتها الجغرافية، لمصلحة الوظائف التي تقوم بها هذه البنيات لفائدة قسم من المجتمع أو المجتمع ككلّ. مفهوم الوظيفية يتضمّن فكرة أن نشاط اجتماعي يمكن أن يقدّم مساهمة في وجود وحدة اجتماعية أكثر شمولا: مجموعة، ثقافة، نسق اجتماعي، إلى جانب نشاطات أخرى . الوظيفية لها أصولها في النزعة العضوية، لكن من حيث هي برنامج علمي مكوّن للعلوم الاجتماعية، ولدت مع "إميل دوركايم" الذي وضع في "قواعد المنهج في علم الاجتماع" 1985 الدلالة الحديثة للوظيفة في علاقة باحتياجات المجتمع، وفي استقلال عن الغايات الصريحة للفعل، للمؤسسة أو لكلّ ظاهرة اجتماعية أخرى.

تعود أصول الوظيفية في الأنثروبولوجيا إلى أعمال البريطاني " رادكليف براون" و البولوني "مالينوفسكي" اللذان يتقاطعان في نقاط ويختلفان في تصورات جوهرية، "فبراون" يتجه إلى دراسة "البنيات الاجتماعية" للمجتمعات البشرية، بينما يركّز "مالينوفسكي" على دلالات وعلى وظائف "الثقافات" باعتبارها محدّدات السلوك البشري. وهذا التباين ناتج في الحقيقة عن اختلاف تصورهما المجتمع . "براون" يتصوره كعلاقة بين أشخاص وجماعات من الأشخاص، حيث يدرس تركيبة النسق بواسطة منهج مقارن، باختيار وظائف المؤسسات والعلاقات التي تقيمها، ببناء نماذج "البنيات" الاجتماعية وبتشخيص العناصر المترابطة، وبتحديد شروط عملها. وهو أيضا ليس في حاجة إلى "الثقافة" لتفسير البنيات. أمّا "مالينوفسكي" فيهتمّ بالأخصّ بالأنماط التي بواسطتها تدمج الأنساق الثقافية أنشطة شعب، وتؤثر في السلوك الفردي. بتنسيق الحاجات الأولية للإنسان التي تأتي من العضوية الجسمية البيولوجية والسيكولوجية وتتمظهر في شكل إثارات وغرائز. من هنا تصبح الثقافة تنظيم

[1] - مصطفى خلف عبد الجواد، نظرية علم الاجتماع المعاصر، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2009.

الحاجات "الثانوية" التي تنمو انطلاقا من تحويل الحاجات الأولية، بهدف إرضائها المنسجم بمساهمة الفن، والدين والأفكار الميتافيزيقية، وهي الأفكار التي طرحها في كتابه "نظرية علمية للثقافة" 1944.

2-2-الوظيفية في علم الاجتماع: الوظيفية البنيوية للأمريكي "تالكوت بارسونس" تتطوّر ضمن نظرة أبحاث "رادكليف براون". في متبعة الهدف المشترك، في الإدماج، وفي الحفاظ على البنية الكامنة للقيم والمعايير المدخلة بواسطة التربية، وفي مراقبة الضغوط النفسية، يحدّد بارسونس الضرورات الوظيفية الأربعة المشتركة في كلّ نسق اجتماعي: لا توجد جماعة ولا منظمة، ولا مجتمع يمكن أن يبقى على قيد الحياة إذا لم يمارس بطريقة ملائمة وظائفه الاقتصادية، السياسية والثقافية، المنبعثة من سيكولوجية أعضائه الخاصة (النسق الاجتماعي 1951).

علماء الاجتماع الذين الذين لم يتبنوا هذه النظرية العامة للأنسقة الاجتماعية، تقاسموا بصورة واسعة في قلب البحث التجريبي، التوجيه الوظيفي كما تمّ تقنينه من طرف " روبارت ميرتون" في مؤلفه: عناصر نظرية ومنهج علم الاجتماع "1944. في هذا الكتاب تمّ تمييز بوضوح، الوظائف الظاهرة لموضوعات التحليل السوسيولوجية عن الوظائف الكامنة، الغير قصدية والغير ظاهرة التي غالبا ما تفسّرها. البراديغم الوظيفي ل(بارسنس وميرتون) كان له صدى واسع ليس فقط في تحليل المجتمعات الشمولية، والثقافات بل وأيضا في دراسة الظواهر المنظمة والظواهر السياسية[1].

2-3- الوظيفية في علم النفس: تتأسس الوظيفية في علم النفس على مبادئ تطورية، وقد نشأت في الو م أ نهاية القرن 19، مركز انتشارها جامعة شيكاغو، ومن أبرز ممثليها "وليام جيمس" و"جون ديوي". بخلاف التيار الاستبطاني المرتبط بتقاليد "وليام فونت"، تمثّل الوظيفة خاصية للثقافة الأمريكية نهاية القرن 19، الراغبة في التحرّر من أصولها الأوروبية. ويعدّ "وليام جيمس" ملهم التيار الوظيفي، حيث يشير في "مبادئ علم النفس" 1980 مباشرة إلى إمكانية تطبيق سيكولوجي للنظريات التطورية لداروين، هذه الأخيرة التي تركّز على العلاقات الصعبة بين العضوية والبيئة، والتي لقيت ترحيبا واسعا في قلب الواقع السوسيوثقافي الأمريكي لهذه الفترة المتميّز بسيطرة النزعة الفردية. إلى جانب ذلك هناك عاملين آخرين وراء الوظيفية هما: الفلسفة البراغماتية ل "جورج هربرت ميد" و "جورج غدوارد مور"، وعلم علم نفس الفعل (القصد) ل "فرانز برانتانو" المعارض للتجريبية المنفصلة كثيرا عن الحياة الواقعية،

[1] - Gianni Vatimo, Maurizio Ferraris, Diego Marconi, Encyclopédie de la philosophie, la pochothèque, librairie générale française 2002, pour la traduction et l'adaptation , p .588.

والنزعة التفتيتية (العنصرية) المميّزة لتوجّه "فونت". بعد العشرية الأولى من القرن 20 وبالموازاة مع صعود التيار السلوكي Behaviorisme، بدأت الوظيفية في الانحدار رغم أن معاييرها الأساسية أصبحت جزء من علم النفس المعاصر في كليته.

التفسير البيولوجي: علماء النفس الوظيفيون يرون في العضوية البشرية المرحلة الأخيرة لعملية التطور. ضمن هذا المنظور الذي يستعيد أطروحات داروين الواردة في " التعبير عن الانفعالات عند الإنسان والحيوان" 1872، من الناحية الجسمية كما من الناحية النفسية، العمليات الذهنية الأولية أو المركبة تفهم كاستراتيجيات تستخدمها العضوية للحفاظ على البقاء. السؤال الأساسي لعلم النفس الوظيفي لم يعد هو: ما هي العمليات الذهنية؟ كما كان الحال مع علم النفس الاستبطاني، بل تحول إلى: ما هو دور العمليات الذهنية؟. فالعمليات الذهنية الواعية في نظر الوظيفيين بدلا من أن تدرك كحوادث نفسية خالصة، وبدون أية علاقة مع باقي العضوية والبيئة، تؤوّل في نظرهم كتعبير جوهري للتكيف البيولوجي. الوعي يتجلّى كلّما وجد السلوك الآلي نفسه أمام أحداث جديدة غير متوقعة، ليمكّن من تحقيق التكيّف ثمّ يختفي بعد ذلك، أي بعد تحقيق مهمته(وظيفة التكيف)، تاركا مكانه لحركات آلية جديدة. ومن الناحية الابستيمولوجية تظهر الوظيفية كنقيض للأطروحة الاستبطانية الجزئية، لأنها تعطي الأولوية ل "الكلّ" على "الأجزاء" أو "العناصر"، وفي هذا الإطار تسبق الوظيفية الجشتلتية. ومن هنا أيضا يرفض "جون ديوي" الأطروحة التجزيئية التقليدية التي تقسّم "القوس الانعكاسي"[1] إلى مثير واستجابة، أي إلى جزأين منفصلين. كلّ سلوك العضوية الحية هو بالتالي عملية كلّية، ودلالته لا ينبغي البحث عنها في العناصر المكونة له، بل في علاقته بالتكيّف مع البيئة.

2-4- الوظيفية في اللسانيات: هي رؤية منهجية تقترح تحديد الوحدات اللسانية بالاهتمام بوظائفها أي بالتركيز على "مبدأ الوظيفة" ، وذلك في مختلف مباحث اللغة: الفونولوجيا، المورفولوجيا، الدلالة....اللسانيات الوظيفة تعنى بتحليل اللغة من حيث وحداتها وتتطرّق بالوصف الدقيق لهذه العلاقة انطلاقا من نظرتها الخاصة للّغة كونها وسيلة تواصل. (تحليل العلاقة بين الدال والمدلول في عملية التواصل، بالنظر في عملية التحويل أي تبديل دال مكان آخر لمعرفة هل حدث تغير في المدلول، وهذا يعني أن العنصر المستبدل وظيفي أو ملائم) هذا النوع من الاستبدال (من الدال إلى المدلول) يستخدم في

[1] - مفهوم القوس الانعكاسي L'arc reflexif هو عنوان الورقة البحثية التي قدمها جون ديوي سنة 1896، وكانت أول ورقة بحثية ترسّخ فكرة قابلية النظرية الوظيفية للتطبيق. القوس الانعكاسي هو المسار الذي يتبعه منعكس عصبي مثل منعكس نفضة الركبة (مثير، استجابة).

الفونولوجيا، بينما استبدال (المدلول بالدال) مستخدم في علم الدلالة أو السيمنطيقا. التيارات الوظيفية تميّز تاريخ اللسانيات الأوروبية للقرن 20، كمدرسة براغ (جاكبسون، تروبتسكوي)، مدرسة سان بيتربورغ (بودوين، دكورتناي)، مدرسة جنيف (دوسوسير، بالي)، مدرسة كوبنهاغ (هالمساف). ومن أهمّ التصورات الوظيفية للغة تصور رومان جاكبسون الذي اقترح نظرية لوظائف اللغة ، حيث أسس على كلّ شرط من شروط التواصل الستة: المرسل، المرسل إليه، الرسالة، السنن (الشفرة)، السياق (المرجع)، القناة، وظيفة لغوية (الوظيفة التعبيرية، الانفعالية، المعرفية، المرجعية...)[1].

3- مبادئ ومنطلقات التيار الوظيفي: يقوم التيار الوظيفي على مجموعة مبادئ:

- اعتبار الأشياء، الكائنات الحية والكائنات الاجتماعية، الجماعات والتنظيمات المختلفة (الأسرة، المؤسسة، الحزب السياسي، الجمعيات...الخ) على أنها نسق أو نظام، وهذا النسق بدوره يتألف من مجموعة من الأجزاء المترابطة والقائمة على درجة من الاعتمادية interdépendance أو الاعتماد المتبادل.

- لكلّ نسق أو نظام (النسق الثقافي، النسق الشخصي المرتبط بالجوانب النفسية والسلوكية للفرد، النسق الاجتماعي، النسق العضوي) احتياجاته الأساسية عليه تلبيتها.

- النسق أو النظام يجب أن يكون في حالة توازن أو استقرار وذلك لا يتأتى إلاّ من خلال تلبية أجزائه الفرعية لاحتياجاته أو متطلباته.

- قد تكون أجزاء النسق وظيفية، تعمل على توازنه، وقد تكون غير وظيفية تضعف توازنه.

- تتحقق حاجات النسق بواسطة تغيرات أو بدائل.

ونشير إلى أنّ فرضيات الوظيفية الأولى تمّت صياغتها في خضم الهيمنة التطورية حيث أثرت إسهامات دارون تأثيراً عميقاً في التصورات الوظيفية لعالم الاجتماع الإنكليزي هربرت سبنسرر Herbert Spencer (1820-1903) الذي شبه المجتمع بالكائن العضوي من حيث البناء والوظيفة. فللمجتمع غطاء جلدي يحميه من المؤثرات الخارجية هو الجيش، ونظام للأوعية الدموية هي طرق المواصلات ووسائل الاتصال، أما النسق الغذائي في الكائن الحي فتقابله دورة البضائع في المجتمع، ويمثل

[1] - ibid. P. 592.

الرأسماليون الجهاز العصبي الذي ينظم ويدير عملية الإنتاج. وفي كتابه «مبادئ علم الاجتماع» أكد سبنسر فكرة الوظيفة الاجتماعية التي تؤديها أجزاء الكائن الاجتماعي التي تترابط مع بعضها بعضاً، وتُكوِّن ما يسمى بالتعايش الاجتماعي.

4- مناقشة:

تعرّضت الوظيفية كغيرها من التيارات الفكرية إلى العديد من الانتقادات أهمّها:

-يرى السوسيولوجي الكندي "ارفنغ زايتلن" (1928-) أنّ الوظيفية بالغت في وحدة وترابط الأنساق الاجتماعية واستقرارها وانسجامها، وكذا في اعتقادها بإيجابية كافة النظم والمؤسسات الاجتماعية.

- الوظيفية تفهم النظم الاجتماعية كنظم ضرورية لا غنى عنها، وما ينطوي عليه ذلك من تحيّزات محافظة، أو ما يسمى بالتحيز الإيديولوجي، حيث وصفت بأنها نظرية الرأسمالية، أي توجه أيديولوجي تدافع عن الرأسمالية باعتبارها نظرية محافظة تدعو إلى الثبات لا التغير والتوازن دون الصراع والثورة.

-بالإضافة إلى إهمالها للصراع والتغير الاجتماعي، وتركيزها على التوازن والتكامل، فهي أحادية النظر. وهي لا تهتمّ بأبعاد أخرى في الظاهرة الاجتماعية مثل الاضطرابات والأمراض والمشكلات الاجتماعية.

- تجد الوظيفية صعوبة في التعامل مع الأحداث التاريخية وعمليات التغير الاجتماعي (اتجاه لا تاريخي في دراسة الأنساق الاجتماعية).

-بالإضافة إلى التركيز على الطابع الستاتيكي وإهمال الصراع، فالكثير من التحليلات الوظيفية مبنية على مقولات ومفاهيم تنطوي على معان تدل على الاستقرار والثبات كالتوازن، التكامل، إدارة التوتر[1]. فإذا كان من السهل أن ننظر إلى الكائن العضوي على أنه وحدة بنائية، وأن بنيته ثابتة لا

[1] - منال جرود، النظرية الوظيفية، الموسوعة السياسية. اطلع عليه يوم: 24-مارس 2024 https://political-encyclopedia.org/dictionary/%D8%A7%D9%84%D9%86%D8%B8%D8%B1%D9%8A%D8%A9%20%D8%A7%D9%84%D9%88%D8%B8%D9%8A%D9%81%D9%8A%D8%A9

تتغيّر، فإنّه من الصّعب النظر إلى المجتمع كمنظومة ستاتيكية لأنه في تغيّر وتحوّل مستمرّ. ثمّ أن الإنسان وهو محور الدراسات الإنسانية والاجتماعية ليس مادة جامدة ولا وحدة متكرّرة، بل هو وعي وإرادة وحرّية.

خاتمة:

التيار الوظيفي تيار فكري حاضر في جميع الحقول المعرفية للعلوم الإنسانية والاجتماعية (علم الاجتماع، الأنثروبولوجيا، علم النفس، اللغة، التاريخ...)، وهو يتعامل مع مختلف الظواهر المدروسة في إطارها الكلّي، أي باعتبارها بنية أو نسق تتفاعل فيه العناصر ويؤثر بعضها في بعض، بحيث يؤدي كل واحد وظيفة معينة داخل الكلّ. هذا وعلى الرغم من الدور والإسهام الكبير الذي حققته الوظيفية في مجالات عدّة إلاّ أنها لم تسلم من الانتقادات أهمّها الإفراط في التركيز على الوظيفة وتجاهل العمليات المعقّدة ممّا قد يوقعها في نوع من الاختزالية والتبسيط الذي يعيق الكشف عن حقيقة الظاهرة.

المحاضرة الثامنة: التيار الماركسي (الماركسية):(Marxisme)

الهدف: التعريف بالتيار الماركسي وأسسه الفكرية

مقدمة:

يعتبر التيار الماركسي من أهمّ التيارات الفكرية المعاصرة، وهو تيار يندرج ضمن الفلسفات التجريبية التي تولي أهمية بالغة للجانب العملي أو للمعطى الواقعي، وذلك هو المظهر المميز للفيلسوف الماركسي بالقياس إلى الفلاسفة التقليديين، حيث يقترن عنده الفكر بالعمل وبالنّضال. والماركسية ليس مجرّد نشاط سياسي أو حركة اجتماعية تتساوى وسائر الحركات المعاصرة، وهي أيضا ليست مجرّد طريقة للفلسفة أو مجرّد منهج للحكم، ولا مجرّد حلّ فني لقضايا الاقتصاد، كما أنها ليست مجرّد فكرة مثالية غامضة، بل إنها في نظر الماركسيين، على الأقلّ ، نظرة شاملة إلى الإنسان والتاريخ، إلى الفرد والمجتمع، إلى الطبيعة وإلى الله، أي أنها نظرة إلى الوجود. ومن هذا المنطلق نتساءل ما حقيقة التيار الماركسي؟ وما هي المبادئ الأساسية التي يقوم عليها ؟

1- التعريف بالتيار الماركسي أو الماركسية Marxisme :

الماركسية مصطلح يشير إلى إمّا إلى مجموع مذاهب كارل ماركس (1818- 1883) وفردريك انجلز (1820-1893)، وإمّا إلى الحركة التي تتبنّى هذه المذاهب مع قراءات وتأويلات مختلفة. خلال سنوات 1880 كان يسمّى ماركسي كلّ من يناصر الاتجاه الاشتراكي الفرنسي في مقابل الاشتراكية المسماة ضدّ ماركسية (الفوضوية). ثمّ أخذ مصطلح الماركسية تدريجيا دلالات أخرى لفكر ماركس مثل: الاشتراكية العالمية، الشيوعية النقدية، التصور المادي للتاريخ أو المادية التاريخية[1].

والماركسية هي تيار فكري سياسي، اجتماعي، فلسفي، تاريخي، أنثروبولوجي واقتصادي قائم على أفكار كارل ماركس وفردريك انجلز ومن سار على نهجهم[2] . ومن الناحية الفلسفية الماركسية تستلهم من المادية الفرنسية للقرن 18 (المقابلة للفلسفات المثالية والثنائية)، من الفلسفة الكلاسيكية الألمانية (بالأخصّ أفكار هيغل)، ومن الاقتصاد السياسي الانجليزي، بالإضافة إلى الاشتراكية اليوتوبية

[1] - Gianni Vatimo, Maurizio Ferraris, Diego Marconi, Encyclopédie de la philosophie, la pochothèque, librairie générale française 2002, pour la traduction et l'adaptation , p .1027

[2] - https://fr.wikipedia.org/wiki/Marxisme(vue le : 29/03/2024 a 23h45')

الفرنسية. وترتكز الماركسية على تصوّر مادي للتاريخ، وعلى المنهج الجدلي (الديالكتيك) والكلّ يشكّل المادية الديالكتيكية. فبالنسبة لماركس وانجلز " تاريخ كلّ المجتمعات البشرية إلى أيامنا هذه، ليس سوى تاريخ صراع الطبقات، وعبر التاريخ هناك ثلاثة أنماط من الإنتاج: العبودي، الإقطاعي والرأسمالي. وتطوّر وسائل الإنتاج يغيّر الشروط الاقتصادية ويقود إلى سلطة طبقات اجتماعية جديدة، التي تعدّل أنماط الانتاج وهكذا....فقد قلبت البورجوازية النمط الاقتصادي وأنتجت البروليتاريا كأسياد اتجاه القنّ. البورجوازيون الذين يتحكمون في وسائل الإنتاج، يسيطرون ويستغلون العمّال. وقلب البورجوازية والرأسمالية يتوقف على الصراع السياسي ونضال العمال، وبالتالي إقامة المجتمع الاشتراكي والشيوعي.

ومن الناحية الاقتصادية تعتبر الماركسية تحليل للرأسمالية، باعتبارها نظام غايته مراكمة رأس المال عن طريق الأرباح (فائض القيمة). وهذه الأرباح تشمل الجزء غير المعوّض من جهد العمّال، الذين لا يتلقون الأجر المناسب لجهدهم المبذول (الاستلاب المادي)، بالإضافة إلى المعاملة اللاإنسانية التي يتلقونها من الرأسماليين (الاستلاب المعنوي). والرأسمالية في نظر ماركس تؤدي إلى تناقضات (استغلال الإنسان للإنسان) أهمّها:

- تركيز الثروة في يد طبقة اجتماعية وفقر الثانية

- مضاعفة المردودية بواسطة التقدّم التقني

- ارتفاع البطالة نتيجة ارتفاع نسبة اليد العاملة

- زيادة الإنتاج دون زيادة الاستهلاك تحدث أزمات دورية لفائض الإنتاج.

ولحلّ هذه التناقضات، يعتقد ماركس وانجلز أنّ تمكّن العمّال من السلطة ضروري، وأنّ الثورة(ثورة العمّال) تقود لا محالة إلى شكل جديد للمجتمع، الاشتراكية ثم الشيوعية حيث لا طبقية ولا دولة، واضعة بذلك حدّا لاستغلال الإنسان للإنسان، بجعله سيّد تاريخه. والتحوّل نحو الشيوعية يمرّ بمرحلتين: الأولى قصيرة ترتبط بديكتاتورية العمال لضمان انتصار الثورة، والثانية طويلة وتتعلّق بإقامة الاشتراكية عن طريق تحويل الملكية إلى ملكية عامة لوسائل الإنتاج والتبادل. والتحضير للثورة يتطلّب انتظام العمال سياسيا ونقابيا. أما الماركسية اللينينية (نسبة إلى لينين) التي تمثّل امتدادا لنظريات ماركس وانجلز في القرن 20، تسلّط الضوء أكثر على النشاط السياسي الثوري وديكتاتورية العمال[1].

[1] - أنظر، هنري لوفيفر، هذه هي الماركسية، ترجمة محمد عيتاني، دار بيروت للطباعة والنشر، 1952.

2- مبادئ الماركسية:

2-1- المادية الجدلية (الديالكتيك):

تقدم الماركسية نفسها كنظرية شاملة لفهم الطبيعة والمجتمع، اعتمادا على مبدأين أساسيين هما: المادية الجدلية والمادية التاريخية.

وتمثل المادية الجدلية المنهج العلمي الذي وضعه كلّ من كارل ماركس وفردريك انجلز كقاعدة لتفسير جميع الظواهر الطبيعية والمجتمعية، فكيف فسّر ماركس الظواهر الطبيعية؟ ما هي القوانين التي ترتكز عليها المادية الجدلية؟

المادية الجدلية هي نتاج الدمج بين فلسفة فيورباخ المادية والجدل الهيغلي بعد تجريده من مثاليته (بعد قلبه)، أي بعد رفض ماركس لفرضية هيغل حول أسبقية الوعي على المادة، وقوله بأن الوعي انعكاس للمادة. مع ماركس وانجلز تحولت المادية من فلسفة ميكانيكية جامدة إلى فلسفة جدلية حيوية، فالمادة ليست ساكنة كما اعتقد فيورباخ، وإنما حيوية ومتحركة بحركة جدلية داخلية، وهذه الحركة هي التي تفسّر التطور والتقدم في الطبيعة والإنسان والمجتمع، ومن هنا كان للمادية الجدلية صفتان:

- رؤيتها للطبيعة وظواهرها كنسق مترابط، ففهم ظاهرة لا يتمّ بشكل منفصل عن الظواهر والظروف المحيطة بها.

- الحركة والتطور والنمو أصل في الأشياء.

يقدم المنهج المادي الجدلي التفسير لكيفية حدوث هذا التطور عن طريق ثلاثة قوانين مترابطة بعضها ببعض، هي قوانين المادية الجدلية وهي:

1- قانون التناقض ووحدة الأضداد وصراعها: الشيء ونقيضه يشكلان وحدة مترابطة، فلا حركة إلاّ بهذا التناقض القائم في الأشياء، ولا تطور في المجتمع إلاّ بهذا التناقض الداخلي. مثل تناقضات النظام الرأسمالي التي تحدث أزمات دورية تنبئ بما سيطرأ عليه من تغيرات.

2- قانون التحول من الكم إلى الكيف: التناقض يحافظ على الوحدة من جهة ويتسبّب في التغير والتحول من جهة ثانية، وهذا التحول يتمّ بطريقة تدريجية "كمّيا" إلى أن تأتي لحظة يتمّ فيها الانتقال من "كيف"

إلى "كيف" ، مثال: التدرج في رفع درجة حرارة الماء (20-10-5....) وعندما تبلغ درجة المائة يتحوّل من سائل إلى غاز، أي يحدث تحوّل كيفي.

3- قانون نفي النفي: هو القانون الثالث للديالكتيك، وهو يدلّ على أنه عندما تتراكم التغيرات الكمية لتحدث تغيرا نوعيا، فإن هذا التغير ينفي الحالة السابقة له مع الحفاظ على ما هو إيجابي فيها، ثمّ تعود التغيرات الكمية إلى عادتها في التراكم حتى تحدث القفزة النوعية فتنفي النفي السابق، مع الاحتفاظ بما هو إيجابي، فيكون النفي هنا مضاعفا (نفي النفي)، وهكذا دواليك، فمسار التطور في المفهوم الجدلي هو ارتقاء للأعلى. مثال: من الأطروحة (النظام العبودي) إلى نقيض الأطروحة (النظام الإقطاعي) الذي ينفي النظام السابق ثم تأتي لحظة ثالثة يحدث فيها نفي النفي، حيث ينفي النظام الرأسمالي النظام الإقطاعي.

2-2- المادية التاريخية:

قصد ماركس بالمادية التاريخية، عملية إسقاط المادية الجدلية على التاريخ، أي دراسة الحياة الاجتماعية عبر التاريخ، أي أن المادية التاريخية هي الوجه التطبيقي لقوانين المادية الجدلية على المجتمع[1]، حيث رأى أن تطور المجتمع مقرون بأسلوب الإنتاج المتبع في مجتمع ما، وبتنظيمه الاقتصادي، فجميع الأوضاع السياسية والاجتماعية والقانونية والفلسفية تتشكّل وتفهم من خلال تأثير العوامل المادية والاقتصادية (البنية التحتية هي التي تحدّد البنية الفوقية). ودراسة المجتمع تكشف عن خمسة أشكال متعاقبة لأساليب الإنتاج: المشاعية البدائية، العبودية، الإقطاعية، الرأسمالية والشيوعية. وفي كلّ نظام تنشأ قوى جديدة تناهضه وتقاتله حتى تقضي عليه، وتنشئ مكانه نظاما آخر، وفي هذا النظام تنشأ أيضا قوى جديدة تناهضه حتى تقضي عليه، وهكذا يستمرّ التاريخ بتقديم نظم اجتماعية جديدة على شكل حلقات متصلة قائمة على التناقض ، ومتبلورة حول مبدأ الصراع بين الطبقات.

الصراع الطبقي: كلّ مجتمع هو نتيجة حتمية لتاريخ الصراع بين الطبقات، فالصراع الطبقي هو محرّك التاريخ لكونه يشمل عنصرين: طبقة حاكمة مستغلّة وطبقة محكومة مستغلّة. فنظام الملكية الفردية ساهم في ظهور طبقتين اجتماعيتين متصارعتين: الأحرار والعبيد، من يملك ومن لا يملك، واستمرّ الصراع بينهما حتى النظام الرأسمالي، حيث الصراع بين الطبقة البورجوازية وطبقة البروليتاريا، وتناقضات هذا

[1] - نورة كطاف هيدان، النظرية الماركسية : الأسس والتقييم، مجلة كلية القانون والعلوم السياسية، العدد 5،جامعة كركوك.

النظام ستؤدي حتما إلى تغييره وتغيير نظام الملكية من فردية إلى جماعية، وبالتالي التحول نحو المجتمع الشيوعي[1].

3- مناقشة:

لاشكّ أن الماركسية استطاعت من خلال نظرية المادية الجدلية والمادية التاريخية أن تقدّم تفسيرا شاملا، يتجاوز البناء النظري ليستوعب مختلف العمليات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، مقدمة بذلك قراءة علمية وواقعية لتطور المجتمع عبر التاريخ، فاتحة المجال أمام إمكانية التغيير، أي عدم الاكتفاء بفهم العالم والعمل على تغييره. هذا وقد تركت الماركسية أثرا واضحا وخلفت وراءها تراثا فكريا واسعا، تسترشد به مختلف الحركات العمالية والقوى السياسة. لكن مع ذلك تعرّضت لعدّة انتقادات ليس فقط من خارجها، بل حتى من بعض أنصارها. فقد اعترض البعض على فكرة نظرتها للطبيعة نظرة جدلية، أي خضوعها مثل المجتمع والتاريخ لقوانين الجدل في حركيتها وتطورها، حيث رفض "جورج لوكاتش" في كتابه "التاريخ والوعي الطبقي" جدلية الطبيعة، معتبرا أن الجدل لا ينطبق إلاّ على الظواهر الإنسانية، كما رفضت البنيوية الجدل إطلاقا، سواء في الطبيعة أو المجتمع أو التاريخ[2].

إنّ أهم نقد وجه للمادية التاريخية هو أن الديالكتيك عند ماركس توقف فجأة عند المجتمع الشيوعي، وهذا التوقف ليس له مبرّر طالما أن الحركة عنده سيرورة مستمرّة. إلى جانب ذلك ليس الصراع المادي إلاّ وجها واحدا من أوجه الصراع البشري، كالصراعات القومية والدينية، فكانت نظرة ماركس انتقائية للتاريخ، ولم ينتهي هذا الصراع مثلما تنبّأ بذلك، بل استمرّ على كافة الأصعدة. وعلى العموم يمكن القول أن النقد الذي طال الفكر الماركسي ساهم ولا يزال في استمرار الماركسية.

خاتمة:

يتّضح ممّا سبق أن الماركسية تيار فكري معاصر استطاع أن يسجّل حضوره القوي في المجال الفلسفي والاقتصادي والسياسي والاجتماعي والأنثروبولوجي والتاريخي....وهي تعبّر عن رؤية مادية ديالكتيكية للوجود وللمجتمع، رؤية ترتكز في تحليلها على جملة مفاهيم من قبيل: نمط الإنتاج، صراع الطبقات، رأس المال، البنية الفوقية ...الخ. والماركسية لا تكتفي بفهم وتفسير هذا الواقع بل تعمل على تغييره،

[1] - هنري لوفيفر، هذه هي الماركسية، مرجع سابق، ص ص 80-100.

[2] - مجاهد عبد المنعم مجاهد، مقدمات في نقد النظرية الماركسية، منشورات الطليعة، تونس، 1986.

وذلك بالعمل على إزالة كلّ أشكال الاغتراب والتشيّؤ واللامساواة في ظلّ نظام اشتراكي صالح. فالنظرية وحدها لا تستطيع شيئا، وتغيير الإطارات والمفاهيم العقلية لا يفيد إذا لم يقترن بتغيير الإطار المادي للمجتمع. وذلك في إطار من التفاعل الجدلي بين المستويين النظري والعملي.

المحاضرة التاسعة:التيار التطوري الداروييني:(التطورية) (Evolutionnisme Darwinien)

الهدف: التعريف بالتيار التطوري الداروييني وأسسه الفكرية

مقدمة:

يعدّ التيار التطوري أو التطورية من ابرز التيارات الفكرية خلال القرن 19 والقرن 20، وهو وإن كان يضرب بجذوره في عمق التاريخ (الحضارة اليونانية، الحضارة الإسلامية) ويمتدّ اليوم إلى العديد من مجالات العلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية (البيولوجيا، علم الاجتماع، الأثروبولوجيا، الفلسفة....)، إلاّ أنّ تأسيسه العلمي يعود إلى نظرية عالم الأحياء الانجليزي " شارل داروين" (1809-1882) والمعروفة بنظرية التطور، والتي تبلورت معالمها في مجال البيولوجيا عبر محاولة الإجابة على جملة من التساؤلات من قبيل: كيف نفسّر تنوع الكائنات الحية وتنوع الأجناس البشرية؟ ماذا تمثل تلك الكائنات المختلفة؟ هل وجدت منذ اللحظة الأولى كما هي عليه الآن؟ ألا يوجد اتصال بينها؟ ألم يحدث تحول فيها أدى إلى ظهور أنواع جديدة ؟ . وقد امتدت هذه النظرية بعد ذلك لمجالات معرفية أخرى، ضمن إطار نفس الرؤية الداروينية. من هنا نتساءل: ما هو التيار التطوري الداروييني؟ وما هي مبادئه وأسسه الفكرية؟

1- التعريف بالتيار التطوري أو التطورية: Evolutionnisme

تمهيدا للتعريف بالتطورية سنلقي نظرة تاريخية موجزة حول فكرة التطور قبل داروين:

1-1- فكرة التطور في العصر اليوناني: اهتم الفكر اليوناني بمحاولة تفسير ظاهرة "الحياة"، واعتبر هرقليطس، فيلسوف الديالكتيك، أن ما يميز الظواهر الطبيعية الحية وغير الحية هو التغير المستمرّ في كلّ شيئ، وهذا ما عبّر عنه أيضا "أنباذوقليدس" الذي اعتبر أن الحياة عملية متدرجة يستعاض فيها عن الأشكال الناقصة بأشكال أكثر منها كمالا. أما "أنكسمندر" فلاحظ "أن الإنسان ظهر بعد الحيوانات كلها، ولم يخل من التقلبات التي طرأت عليها، فخلق أول الأمر شنيع الصورة، ناقص التركيب، وأخذ يتقلب إلى أن حصل على صورته الحاضرة"[1]. وهذه الأفكار تؤكد وجود حلقة وصل بين الكائنات الكائنات العضوية البسطة والكائنات الأكثر رقيا بما فيها الإنسان.

[1] - تشارلز داروين، أصل الأنواع، ترجنة اسماعيل مظهر، مؤسسة هنداوي، 2018، ص 12.

1-2- فكرة التطور في الحضارة العربية: عرف الفكر العربي، خاصة مع الفلاسفة المشبعين بالنزعة العقلانية، ظهور فكرة النشوء التلقائي لظاهرة الحياة والإنسان في أحضان المادة غير العضوية، وهذا ما عبّرت عنه الفصة الفلسفية الرمزية "حي بن يقضان" لابن طفيل الأندلسي (1185-1110م)، حيث يرجع فيها ظهور الحياة إلى ظاهرة التخمّر الطبيعية للمادة. كما أن ابن خلدون (1406-1332م) ربط بين اختلاف أشكال وألوان الناس، وأخلاقهم وعاداتهم، وبين ظروف البيئة كالحرارة أو البرودة، إلى جانب ملاحظته وجود ترقي وتطور يتجلى في التدرج في المستوى والتعقيد[1] .

1-3- فكرة التطور منذ عصر النهضة الأوروبية: رغم مساهمات العرب في الطب والبيولوجيا، إلاّ أن النظرية التي كانت سائدة على مستوى رسمي هي نظرية الخلق (حتى في الفكر المسيحي)، ومع عصر النهضة عمل بعض الفلاسفة على إحياء فكرة النمو المتدرّج بين الكائنات العضوية الحية إلى أن جاء داروين وأثبت التطور علميا. ومن بين أولائك الفلاسفة: فرنسيس بيكون، ديكارت، ليبنتز، كانط...[2]

1-4- نظرية التطور من لامارك إلى داروين: عرفت بداية القرن 19 انتشارا واسعا لفكرة التطور بين البيولوجيين، الذين أكدوا وجود صلة بين الأنواع الحية المختلفة وأن هناك تطور في تلك الأنواع. لكن أول من قال بنظرية منسقة في التطور – رغم تجاوزها مع داروين- هو البيولوجي الفرنسي "لامارك" (1744-1829) الذي رأى "أن الأحياء البسيطة هي التي أوجدت كل ما علاها من أحياء معقدة"[3]. ويمكن تلخيص نظرية لامارك في الأفكار الثلاثة التالية:

- هناك علاقة بين ظروف البيئة وما تعرفه الأشكال الحيوانية من تعديل وتطور، أي أن الظروف التي كان يحيا فيها أجداده (أي الكائن الحي) هي التي شكلت مع الزمن تركيبه الجسماني.

- هناك تنوعات بين أفراد النوع الواحد.

- التنوعات التي تطرأ بين أفراد النوع الواحد تنتقل إلى الأجيال اللاحقة عن طريق الوراثة.

هذه المعطيات ساعدت على بلورة نظرية التطور عند "تشارلز داروين"، التي قدمها في كتابه " أصل الأنواع". وقد أشرقت في ذهن داروين معالم نظريته في التطور بعد قراءة كتاب الراهب الانجليزي

[1] - المرجع نفسه، ص 21.

[2] - هنتر ميد، الفلسفة أنواعها ومشكلاتها، ترجمة فؤاد زكريا، مؤسسة هنداوي، 2017، ص 123.

[3] - محمد السيد غلاب، أصل الإنسان، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1977، ص 40.

"مالتوس" في الديموغرافيا الذي بين فيه أن عدم وجود تكافؤ بين نمو السكان (الذي يسير بمتوالية هندية: 2-4-8-16...) ونمو مصادر التغذية (الذي يسير بمتوالية حسابية: 1-2-3-4...) سيؤدي إلى حروب طاحنة بين الشعوب ينتهي بها إلى الدمار. حيث أثرت فكرة مالتوس هذه في بلورة فكرة " الصراع من أجل البقاء" عند داروين التي توصّل إليها سنة 1838. ويمكن تلخيص نظرية داروين في الأفكار الأساسية التالية:

هناك نشوء طبيعي للحياة وارتقاء وتطور يؤدي إلى ظهور أنواع جديدة أكثر قابلية للتكيف، ولها من المؤهلات ما يسمح لها بالاستمرار في الوجود، بمعنى **أن الطبيعة تقوم بعملية اصطفاء وانتقاء** حسب قانون خاص يسميه داروين **قانون الانتخاب الطبيعي**، والذي تتحكم فيه ثلاثة عوامل:

- الصراع من أجل البقاء: الكائنات التي تستطيع أن تستمر هي التي تخرج من الصراع حول ندرة الغذاء والجنس منتصرة، أما المنهزمة فتفنى.

- يترتب عن الصراع حول البقاء حدوث تنوعات بين أفراد النوع، هذه التغيرات تفيد في التكيف مع البيئة.

- التنوعات تنتقل إلى الأجيال اللاحقة عن طريق الوراثة، وتكون تلك التغيرات بسيطة في أول الأمر، وتحدث بنسب كمية إلى أن تصل إلى درجة الطفرة، يظهر فيها تحول كيفي يعطي نوعا جديدا بخصائص مميزة.

وقد أحدثت نظرية داروين ثورة فكرية على التفسير الميتافيزيقي والديني لظاهرة الحياة، وخلّفت ردود فعل واعتراضات من طرف رجال الدين والعلماء، لأنها في نظرهم لم تتمكن من سدّ الثغرات الموجودة بين الأنواع، مثل الثغرة الموجودة بين الإنسان والحيوان وبين المركبات الكيماوية والكائنات العضوية الحية. لكن مع ذلك هناك ملاحظات غير مباشرة تؤكد نظرية التطور[1].

بناءا على ما سبق يمكن تعريف التيار التطوري أو التطورية L'évolutionnisme كما يقول لالاند في موسوعته الفلسفية " بأنها منظومة فلسفية أو علمية مرتكزة على فكرة التطور بكلّ معاني الكلمة، بنحو خاص: أ- فلسفة الصيرورة، مقابل فلسفة الخلود والثبات. ب- مرادفة للتحولية

[1] - ارجع إلى كتاب : هنتر ميد، الفلسفة أنواعها ومشكلاتها، ص ص 125-135.

Transformisme، مذهب لامارك وداروين،الخ القائل بأن الأجناس Espèces تتنزّل من بعضها البعض بالتحول الطبيعي. ج- مذهب يقول إن القانون العام لنموّ الكائنات هو التباين المصحوب بتدامج[1].

التطورية إذن مجموعة مذاهب فلسفية، سياسية، أخلاقية ودينية مستوحاة من تصورات للتطوّر مماثلة لتلك التي وضعها تشارلز داروين في البيولوجيا.

2- مجالات التطورية:

لم تقتصر النظرية التطورية على مجال علم الأحياء (البيولوجيا) بل شملت ميادين معرفية متعدّدة، تبنت فكرة التطور واعتبرتها مبدأ عاما ومشتركا بين مختلف العلوم.

2-1- في الفلسفة: أول محاولة منهجية في الفلسفة للأخذ بفكرة التطور وجعله محور التفسير الميتافيزيقي للواقع، تعود إلى الفيلسوف الانجليزي "هربرت سبنسر"(1820-1903)، هذا الأخير الذي سبق داروين في تحديد قانون التطور. حيث اعتبر التطور المبدأ الكفيل بتفسير بطريقة موحّدة، المبادئ العامة المشتركة بين العلوم. وقد وصف قانون التطور بأنه طفرة – بسبب تشتّت الحركة وتكامل المادة- يعمل بصورة متجانسة غير محدّدة وغير متناغمة باتّجاه عدم تجانس محدّد ومتناغم، بمعنى أننا في الكون لا نشهد فقط مضاعفة للأجزاء والأشكال، ولكن أيضا زيادة في الوضوح، تصبح معه هذه الأجزاء متميزة عن بعضها البعض.

هذا ويعتبر الفيلسوف الفرنسي المعاصر "هنري برغسون" (1859-1941) هو الآخر من أنصار التطورية الفلسفية، حيث انتقد الطابع الميكانيكي لتطورية "سبنسر" معتبرا أن ماهية التطور لا تدرك إلاّ بواسطة الحدس المباشر، باعتباره " قوّة حيوية" بفضله تتضاعف الحياة في المكان والزمان، على خلاف المادة التي تستعمل وتذوب.

2-2- في الدين: أحدثت الداروينية أزمة عميقة في الرؤية الدينية. فإذا كان الإنسان هو نتيجة عملية تطورية، فإن قدراته الروحية لا تمثل عندئذ عامل تمييز بل عامل استمرارية بين الإنسان وباقي المملكة الحيوانية.ومن جهة أخرى العملية التطورية لا تتّجه نحو غاية، ولكنها تتوقف على آلية جدّ محدّدة (حتمية)، وهي بالتالي من وجهة النظر اللاهوتية ثمرة "الصدفة". كما أن التأويل المسيحي الحرفي

[1] - أندري لالاند، الموسوعة الفلسفية، ترجمة خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، باريس ط2، 2001، ص 381.

للخلق يتعارض مع نظرية تطور الكائنات. لكن هذه الأزمة التي شهدها اللاهوت التقليدي، تبعتها، خاصة خلال القرن 20، مرحلة قبول لبعض مبادئ الداروينية من طرف بعض رجال الدين.

2-3- في السياسة وعلم الاجتماع: في المجال السياسي والاجتماعي يمكن الوقوف على عدّة تأويلات. حيث نجد "كارل ماركس"- الذي يعتبر شبيه داروين في الاقتصاد- يهدي الجزء الأول من كتاب " رأس المال" إلى داروين نفسه، في الوقت الذي نجد فيه العديد من المفكرين الاجتماعيين والفوضويين يرون في الداروينية أولا، التأكيد النهائي على الطابع المتغيّر تاريخيا لكلّ مؤسسة سياسية واقتصادية، ثم ضبط لمفهوم متفائل عن التقدّم كان دائما حاضرا في التراث الإصلاحي، والثوري الراديكالي.

في مقابل هؤلاء نجد فئة أخرى من المفكرين يركّزون بالأخص على مصطلح "الانتقاء الطبيعي"، يجدون في نظريات داروين مشروعية أسطورة الإنسان، التي تفصح عن نفسها في المجال الاقتصادي بسبب مؤهلاته وكفاءاته، أو لتبرير النظريات الليبرالية الاقتصادية، حيث تتحقق المصلحة الاجتماعية في المجال الاقتصادي عبر دعم نوع من الانتقاء الطبيعي، أي عبر احترام التفاوت الطبيعي بين الأفراد.

2-4- في الأنثروبولوجيا: ميزت التطورية الدراسات الاجتماعية والأثنولوجية للنصف الثاني من القرن 19. ومن أهمّ المبادئ الأساسية للتطورية في الأنثروبولوجيا أولا، فكرة الطابع الخطي لتطور البشرية، الذي بموجبه تطورت كل المجتمعات بالمرور بمراحل تطورية متماثلة، ثم فكرة القول بوجود وحدة نفسية أساسية للنوع البشري. من هذين المبدأين يظهر أن موضوع البحث هنا ليس هذا المجتمع أو ذاك، أو هذه الثقافة أو تلك، بل الثقافة الإنسانية ككلّ في الزمان والمكان، وأن المنهج الملائم هو المنهج المقارن. وانطلاقا من الافتراض المسبق لتوحيد نمو وتطور كلّ المجتمعات الإنسانية، تنتج القناعة المشتركة بين علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا التطوريين، إمكانية وضع "سلّم" للحضارة، ومنه تصنيف المجتمعات والثقافات. ويعدّ الأنثروبولوجي الانجليزي "غدوارد تايلور" من أهمّ أنصار التطورية في الأنثروبولوجيا الذين ساهموا في تطوير منهجية البحث الأنثروبولوجي[1].

[1] - Gianni Vatimo, Maurizio Ferraris, Diego Marconi, Encyclopédie de la philosophie, la pochothèque, librairie générale française 2002, pour la traduction et l'adaptation , p . 550-551.

3- مناقشة:

يبدو أن التطورية ومنذ نشأتها خلال القرن 19، خاصة في ثوبها الداروينيي، قد مكنت من تفسير العديد من الظواهر الطبيعية والاجتماعية، وقد تعززت هذه النظرية بما انتهت إليه بعض الاكتشافات العلمية الحديثة في مجال الحفريات Paléontologie (تسلسل الكائنات العضوية من نمط إلى آخر، مثل الطائر الذي له أصابع متخلفة في طرفي جناحيه تدلّ على المرحلة التي كان يسير فيها على أربع)، وفي علم الأجنة Embryologie (تشابه الأنواع الحيوانية إذا رجعنا إلى المراحل الأولى في تكوّن الجنين، مثل السمكة والسلحفاة والدجاجة والأرنب والإنسان، وهذا يدلّ على أصلهم الواحد المشترك)، إلى جانب ذلك، ساعد التشريح المقارن L'anatomie comparative على تبيان التشابه في البنية التركيبية والوظيفية عند بعض الكائنات الحية مثل التشابه الموجود بين القردة والإنسان. ومن الحجج المؤيدة لنظرية التطور ما يسمّى ب "الأعضاء الزائدة" أي الأعضاء التي توجد عند بعض الكائنات دون أن تكون لها وظيفة تساعد الجسم على تكيّفه. وكمثال على ذلك، عند الإنسان، نجد الدودة الزائدة، والشعر الذي يكسو بعض أنحاء الجسم، والعضلة المسؤولة عن تحريك الأذن، والعضلة المسؤولة عن تحريك الذنب، وأضراس العقل، والأظافر وغيرها من الأعضاء التي تشير إلى مرحلة سابقة من تطوّر الإنسان.

لكن مع ذلك تواجه نظرية التطور عدّة عقبات وتحديات جعلتها عرضة لانتقادات ليس من طرف رجال الدين فقط، بل ومن العلماء أيضا، خصوصا في ما يتعلّق بعجزها عن الإجابة على بعض الأسئلة حول الحياة البيولوجية. ممّا يجعلنا نعتقد أن هناك أسباب علمية قوية للتشكيك في نظرية التطور، وهذه النقائص قد يجيب عنها العلم أو قد تهدم نهائيا النظرية.

خاتمة: التيار التطوري الداروينيي من أبرز تيارات القرن 19 الذي أحدث ثورة في علم الأحياء، رغم أن داروين لم يكن السبّاق للأخذ بفكرة التطوّر، والجديد معه هو قوله بانحدار الأنواع من أصل واحد، مثلما جاء في كتابه "أصل الأنواع" 1859. وإذا كانت نظرية التطور قد تبلورت أولا كنظرية داخل علم الأحياء (البيولوجيا)، فإنها لم تبقى حبيسة هذا المجال بل امتدّت إلى مجالات وحقول معرفية متعدّدة كالفلسفة وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا وغيرها. وسواء أخذنا بفكرة التطور بالمعنى البيولوجي الداروينيي أو بالمعنى السوسيولوجي الجدلي كما تبنته الماركسية، فإن التطور حقيقة لا يمكن إنكارها.

المحاضرة العاشرة: التيار الوجودي (الوجودية) Existentialisme

الهدف: التعريف بالتيار الوجودي وأسسه الفكرية

مقدمة:

الوجودية باعتبارها بحث فلسفي يعنى بقضايا الوجود، تضرب بجذورها في عمق التاريخ منذ الحضارات الشرقية القديمة، مرورا باليونانية مع "هرقليطس" و"برمنيدس" و"أفلاطون" و"أرسطو" وصولا إلى الفترة الحديثة. لكنها لم تتبلور في صورة نسقية، أي كتيار فلسفي، إلاّ مع الفيلسوف الدانماركي " سورين كيركغارد" الذي وضع الحجر الزاوية للتيار الوجودي، مع أنه كان من أشد المفكرين نبذا لما يسمى بالتصنيف المذهبي الفلسفي. وقد جاء هذا التيار كردّ فعل على التيار المثالي المجرّد، والتيار الوضعي العلموي. فما حقيقة التيار الوجودي؟ وما هي مبادئه ومرتكزاته الفكرية؟

1- التعريف بالتيار الوجودي أو الوجودية: Existentialisme

الوجود يقابل العدم، وهو بديهي، فلا يحتاج إلى تعريف إلاّ من حيث أنه مدلول للفظ دون آخر، فيعرف تعريفا لفظيا يفيد فهمه من ذلك اللفظ، لا تصوره في نفسه. مثال ذلك تعريف الوجود بالكون، أو الثبوت أو التحقق، أو الحصول، أو الشيئية، أو بما به ينقسم الشيء إلى فاعل ومنفعل، وإلى حادث وقديم، أو بما به يصحّ أن يعلم الشيء، ويخبر عنه، فهذه كلها تعريفات لفظية أخفى من الشيء المعرّف، ولا معنى لتعريف الشيء بما هو أخفى منه. وإذا أردنا أن نوضيح معنى الوجود، نستطيع تمييزه عن غيره بما يلي: الوجود هو كون الشيء حاصلا في نفسه. والوجود هو كون الشيء حاصلا في التجربة، حصولا فعليا أو صوريا. والوجود هو الحقيقة الواقعية الدائمة التي نعيش فيها. والوجود أيضا مصدر وجد أو كان (Etre) فيكون معناه الوجود الحقيقي أو الواقعي. والوجود ينقسم إلى قسمين: وجود خارجي(الوجود المادي)، ووجود ذهني (الوجود العقلي)[1].

و**الوجود عند الفلاسفة** المدرسيين(السكولائيين) مقابل للماهية essentia- existentia، لأن الماهية هي الطبيعة المعقولة للشيء، والوجود هو التحقق الفعلي له. وكون الشيء حاصلا في التجربة غير كونه ذا طبيعة معقولة. ومن الفلاسفة من يقول أن وجود الشيء زائد على ماهيته، كابن سينا الذي

[1] - جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت،لبنان، الجزء الثاني، 1982، ص 558.

يرى أن الوجود عرض في الأشياء ذوات الماهيات المختلفة محمول عليها، خارج عن تقويم ماهياتها[1]. ومن الفلاسفة من يقول أن وجود كلّ شيء عين ماهيته، كوجود الإنسان هو نفس كونه حيوانا ناطقا.

و**علم الوجود أو الأنطولوجيا Ontologie** فهو قسم من الفلسفة، وهو يبحث في الموجود في ذاته مستقلا عن أحواله وظواهره، أو علم الموجود من حيث هو موجود (أرسطو). وموضوع هذا العلم قد يقصر على الوجود المحض، كما في وجودية (هيدغر)، أو يوسّع حتى يشمل طبيعة الكائن الواقعي، أو الموجود المشخص وماهيته، وأهم مسائل هذا العلم تحديد العلاقة بين الماهية والوجود[2].

أمّا الوجودية Existentialisme بالمعنى العام فهي إبراز الأهمية الفلسفية التي يرتديها الوجود الفردي (قيمة الوجود الفردي) بمزاياه التي لا تقبل الخفض." عودة للوجود كما هو معطى لنا، شعور متزايد بالعبث الذي يمكنه التوغّل حتى في مذاهب صارمة، قياس المسافة بين التجريدات النظرية والتجربة العينية، باختصار، الحاجة إلى مواجهة الوجود واعتباره كما هو معاش، والتفكير به تفكيرا فعّالا، هذه بالضبط بعض السمات التي تجتمع في الوجودية أو الفلسفة الوجودية". وهي مذهب "كيركغارد" و"ياسبرس" "هيدغر" ،" شستوف"، "برديائف" وغيرهم.

و**الوجودية بالمعنى الخاص** هي المذهب الذي عرضه "جون بول سارتر" في كتابه "الوجود والعدم" L'être et le néant ونشره في الجمهور بواسطة مسرحياته، ورواياته ومقالاته. ويستمدّ المذهب اسمه من الأطروحة القائلة " الوجود يسبق الماهية، وأن الإنسان مطلق الحرية في الاختيار، يصنع نفسه بنفسه، على قدر ما تسمح له بعض المحدّدات المقرّرة من قبل"[3].

يمكن القول إذن أن **الوجودية** هي اتجاه فلسفي يتبنّى الوجود كموضوع خاص- من حيث هو نمط وجود مميّز للإنسان- ، وذلك في مقابل كلّ اختزال للموجود (الذات) إلى "شيء" أو إلى " حالة شيء" (موضوع) القابل للدراسة العلمية، وهذا ضدّ كلّ إدماج للفرد في خطاطات الفلسفات الكليانية، كالمثالية الهيغلية مثلا، حتى أن فلسفة "كيركغارد" هي ردّ فعل اتجاه مثالية هيغل.

---

[1] - ابن سينا أبو علي، منطق المشرقيين، المكتبة السلفية، القاهرة، مصر، د ط، د س، ص 22.

[2] - جميل صليبا، مرجع سابق، ص 560.

[3] - أندري لالاند، الموسوعة الفلسفية، ترجمة خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، باريس "2، 2001، ص 388.

2- أقسام الفلسفة الوجودية:

الوجودية تيار متشعّب- كالمروحة- كما يصفه أحد أتباعه، وهو "غابريال مارسال"، ولكننا نستطيع أن نميّز فيه بين شعبتين رئيسيتين هما:

2-1- الوجودية الحرّة (الملحدة): سميت كذلك لأنها تحرّرت من كلّ المعتقدات الموروثة، ومن روادها الفيلسوف الألماني "مارتن هيدغر" (1889-1976) صاحب كتاب "الوجود والزمان"، والفرنسي " جون بول سارتر" (1905-1980) مؤلّف " الوجود والعدم". هذه الفلسفة لا تؤمن بالأديان السماوية، وتعتبرها عوائق تحول دون تقدّم الإنسان وتطوره، تحدّ من حريته وتحرّره، وكان ذلك بمثابة ردّ فعل ورفض للقيود التي كانت تفرضها الكنيسة خلال القرون الوسطى من خلال محاكم التفتيش.

2-2- الوجودية المقيّدة (المؤمنة أو المتدينة): وهي ترتبط بعقيدة ما ويمثلها "كيركغارد"، "غابريال مارسال" و"كارل ياسبرس" . ومن الدوافع الأساسية لهذه الفلسفة هو مناهضة الفلسفة المثالية الألمانية، خاصة مثالية هيغل، التي كان صيتها ذائعا في القرن 19 في أوروبا. أول من أسّس هذه الوجودية هو "كيركغارد". يقول باول يوهانس تيليش: " حين قدمت الفلسفة الوجودية إلى ألمانيا، توصلت أنا إلى فهم جديد للعلاقة بين الفلسفة واللاهوت"[1].

وقد أدّى هذا التشعب في الفلسفة الوجودية إلى اختلاف النتائج التي انتهت إليها كلّ شعبة. فبينما ترى الوجودية الحرّة، أن الوجود مأساة يحياها الإنسان، وتنظر إلى وجود الآخرين وعلاقتهم بالذات نظرة عدم اطمئنان، ولا تجد للوجود معنى ولا غاية فهو حال من العدم...على عكس ذلك نجد الوجودية المقيدة تردّ الوجود إلى الله، وتنظر إلى الوجود وهدفه، وتتطلّع إلى عون الله وعنايته ولطفه.

3- مبادئ وأسس الوجودية:

على الرغم من الاختلافات بين شعبتي الوجودية المشار إليهما، فإن هناك مبادئ عامة يتفق حولها أغلب الفلاسفة الوجوديين وهي:

- الوجود يسبق الماهية: الإنسان يوجد أولا ثمّ يكتسب مميزاته وصفاته، أي ماهيته، فالإنسان في نظر الوجوديين ليس مكتملا بل هو اتجاه ونزوع وشروع، أي أنه يتغيّر باستمرار.

[1] - يمنى طريف الخولي، الوجودية الدينية، دراسة في فلسفة باول تيليش، مؤسسة هنداوي، القاهرة، مصر، 2017، ص 83.

- الوجود الإنساني: الوجود الذي تهتمّ به الوجودية هو في المقام الأول الوجود الإنساني وعلاقته بالعالم. الأول الوجود الإنساني ويقابله الوجود الموضوعي، أي وجود عالم الأشياء، فالأشياء مجرّد أدوات تستخدمها الذات الإنسانية لتحقيق ممكناتها.

- الإنسان حرّ مختار: وهو يختار ما يمكن تحقيقه من سائر الممكنات المتاحة لديه، وهو عندما يختار يخاطر لأنه معرّض للنجاح والإخفاق. وهنا يميّز "سارتر" بين الوجود في ذاته (وجود الموجودات غير العاقلة) حيث الماهية تسبق الوجود، والوجود لذاته (الوجود الإنساني الواعي حيث الوجود يسبق الماهية)، أي أن الإنسان يوجد أولا ثم يختار ماهيته (ما يريد أن يكونه) بمحض إرادته.

- الوجود والعدم: المخاطرة والتهديد المستمر للوجود يجعل الإنسان يشعر بالعدم، فالعدم عنصر جوهري أصيل في الوجود ، وهو يكشف عن نفسه في حالة القلق عند الإنسان.

- رفض الفلسفات الماهوية: رفضت الوجودية الفلسفات التي تقول بوجود ماهية سابقة على الوجود الذاتي، وبالأخص المثالية الألمانية، التي اهتمت بالمفاهيم العامة والمطلقة والمجرّدة، بعيدا عن التجربة الذاتية، فصورت الإنسان في أفكار وتصورات مجرّدة وليست كتلة من المشاعر والعواطف والأحاسيس تضجّ بالحياة، فجرّدت الإنسان من طابعه الفردي العيني (التجربة الذاتية العميقية) فهي " لا تعبّر عن الصراع والتمزّق، وعن مغامرة الإنسان في معركة المصير والإنسانية كجوهر لا تتألّم"[1].

4- مناقشة:

من جملة الانتقادات التي توجّه للتيار الوجودي عموما، والوجودية الحرة (الملحدة) ما يلي:

- إيمان الوجودية بأن الوجود الحقيقي هو الوجود الإنساني، ولا يوجد شيء سابق عليه ولا لاحق عليه، فيه إنكار وهدم للأديان والإيمان والقيم التي جاءت بها.

- الحرية المطلقة تنتج اللامبالاة والفردانية والتفرّد في اتخاذ القرارات اللاّمسؤولة، ممّا يهدّد منظومة القيم الأخلاقية والتربوية، فالحرية محدودة ونخضع لجملة من الحتميات والظروف.

[1] - الشاروني حبيب، فلسفة جون بول سارتر، منشأة المعارف، الاسكندرية، مصر، 1962، ص 10.

- قد ينتج عن الوجودية اضطرابات نفسية، وقلق ويأس وفراغ روحي. القلق نتيجة غياب الإيمان، والهجران نتيجة شعور الإنسان بأنه وحيد لا عون له إلاّ نفسه، أمّا اليأس فهو نتيجة طبيعية للقلق والهجران[1].

- إيمان الوجودية بالحرية المطلقة وبأن الإنسان مشروع ذاته، ينتج فوضى قيمية وأخلاقية، حيث يغيب المعيار الموحّد والمشترك ممّا ينعكس سلبا على وحدة وتماسك الحياة الاجتماعية.

- القول بالمسؤولية المطلقة يتعارض مع فكرة الحتمية والقدرية.

- القول بأن الحياة لامعقولة (عبث)، عبارة تقابل بالنفور من أكبر عدد من الناس، لأن الكون والحياة ليس عبثا بل هناك غاية أو خطة شاملة، تضمّ حياتنا الفردية والحوادث التي تؤثّر فيها، حتّى وإن كنا نجهل هذه الخطّة في تفاصيلها اليومية، وهناك حجج عديدة تثبت وجود هذا التدبير الكوني.

خاتمة:

ما يمكن استخلاصه في الأخير هو أنه على الرغم من كلّ الانتقادات التي وجهت للتيار الوجودي، فإنه لا بدّ من الإقرار أن الوجودية ليست مجرّد فلسفة تشاؤمية أو انهزامية تماما كما يتمّ تصويرها، فهي لا تهاجم إلاّ المذهب الذي يفترض في الكون والحياة البشرية تدبيرا كلّيا أو شاملا أو موضوعيا، وهي لا تنكر وضع الأفراد لأهداف فردية وغايات ذاتية في الحياة. والذاتية هنا تعني أن القيم ليست شخصية وفردية فحسب، بل إن كلّ الخطط والغايات تتّصف بدورها بهذه الصفة. فمعنى الحياة يستمدّ من الذات، نجده في أنفسنا وبأنفسنا، معنى ورضا في أعمال وأهداف معينة، هذا يعني الالتزام بأمور معينة، وهذا الالتزام Engagement هو الذي يجعل الحياة جديرة بأن تعاش، وهو أيضا ما يجعل من الوجودية نزعة إنسانية.

[1] - محمد عبد الله الشرقاوي، في الفلسفة العامة، دراسة ونقد، دار الجليل، بيروت، لبنان، ط2، 1991، ص 52.

المحاضرة الحادية عشر: تيار التحليل النفسي : Psychanalyse

الهدف: التعريف بتيار التحليل النفسي ومبادئه الأساسية

مقدمة:

تيّار التحليل النفسي Psychanalyse من أبرز تيارات علم النفس انتشارا، إلى حدّ أن الكثيرون يخلطون بين علم النفس والتحليل النفسي. فبعد أن ذاع صيت " سيغموند فرويد" (1856-1939) وانتشرت نظرياته في التحليل النفسي، وتسرّبت المصطلحات التي نحتها إلى لغة الحياة اليومية، ساد الاعتقاد عند غير المختصين أن علم النفس هو فرويد وأن فرويد هو علم النفس، وكافح أهل الاختصاص في علم النفس بفروعه المختلفة ردحا طويلا لإيضاح الاختلاف وإلقاء الضوء على مجالات علم النفس الكثيرة التي لا علاقة لها بالتحليل النفسي. وهذا إن دلّ على شيء إنما يدلّ على الأهمية والقيمة التي يحظى بها التحليل النفسي في مجال علم النفس أولا، وفي مجالات أخرى امتدت إليها اهتمامات علماء التحليل النفسي بما فيهم فرويد نفسه، كالفن والدين والحضارة والتاريخ الإنساني....الخ. من هذا المنطلق سنحاول في هذه المحاضرة أن نعرّف بالتحليل النفسي، وأهمّ المبادئ والأسس التي يقوم عليها، مع النظر في أهمّ تياراته.

1- التعريف بالتحليل النفسي:

يأخذ مصطلح التحليل النفسي أكثر من دلالة، ويرجع ذلك إلى تشعّب مجالات البحث التي اهتمّت بها مدرسة التحليل النفسي، وتباين اختصاصات أنصاره، ففي **الميدان الطبي الضيق** يقصد بالتحليل النفسي: **" منهجا خاصا في العلاج الطبي ابتكره الأستاذ فرويد لشفاء طائفة معينة من الاضطرابات العصبية، وهذا المعنى المحدود هو الذي استخدمت فيه لأول الأمر"**. فالتحليل النفسي اصطلاح حديث أطلقه فرويد" على إحدى طرق العلاج في علم النفس المرضي. وقد انتشر هذا الاصطلاح في علم النفس الحديث، حتى أطلق على جميع التقنيات المستعملة في دراسة الأفعال النفسية شعورية كانت أو لا شعورية[1]. ولمّا كان اهتمام فرويد منصبا –في الأساس- على تحديد ميكانيزمات الحياة النفسية التي لا نشعر بها، فقد اعتبر التحليل النفسي: **" فنا خاصا للبحث في أعماق النفس"**. إلاّ أن تشعّب الميادين التي امتدّت إليها اهتمامات علماء التحليل النفسي بما فيهم فرويد، كالاهتمام بالأحلام، والنكت، والنسيان،

[1] - جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت،لبنان، الجزء الأول، 1982، ص 257.

والإبداع الفني، والدين، والقيم الأخلاقية، ونشوء الحضارة، والتاريخ الإنساني....كل ذلك جعل الرصيد المعرفي لمدرسة التحليل النفسي واسعا ولا يقتصر على "فنّ العلاج"، ومن ثم أصبح بالإمكان القول أن **التحليل النفسي هو "...جملة المعارف التي اكتسبناها من تطبيق هذا المنهج (أي التحليل النفسي كمنهج علاجي)"**. والتحليل النفسي بذلك يرادف **"علم اللاشعور"**، بمعنى إذا كان التحليل النفسي بدأ خطواته الأولى في ميدان الطب، وفي دائرة ضيقة منه هي "الأمراض العصبية"، فإن ميل فرويد إلى "التنظير" و"التفلسف"، فتح أمام التحليل النفسي أكثر من أفق فكري وفلسفي خاصة عندما عزم على وضع نظرية متكاملة في الغرائز. والنظرية عادة ما تتجاوز المعطيات التجريبية والملاحظات الاكلينيكية إلى مستوى التعميم والتجريد الشيء الذي انتهى إلى: "تجاوز حدود التحليل النفسي"[1]. فبالاحتكاك بميادين مختلفة والحوار مع دوائر ثقافية مباينة للميدان الطبي:" أصبح لفظ التحليل النفسي ذاته لفظا مبهما. فبعد أن كان في الأصل اسما لوسيلة علاجية خاصة، أضحى الآن، فضلا عن ذلك، اسما لعلم هو علم العمليات النفسية اللاشعورية"[2].

وعندما نتأمل في معطيات التحليل النفسي كمفاهيم وتصورات ونظريات وأسلوب في العلاج من جهة، ثم الثقافة الموسوعية الشاملة التي تميّز ثقافة فرويد من جهة ثانية، يمكننا القول: أن الاهتمامات الفلسفية لفرويد كانت مبكّرة، وعلى الأقل كانت موازية لاهتماماته العلمية الاكلينيكية. وبالتالي لا نعتقد أن الميل إلى التفلسف لم يبدأ إلاّ في مؤلفاته التنظيرية المتأخرة مثل " ما فوق مبدأ اللذة" و"الطوطم والطابو" و"مستقبل وهم"...بل كانت قريحة فرويد الفلسفية متفجرة منذ فترة مبكّرة. وإذا ما قال فرويد" أنه منذ كتابة "تفسير الأحلام" لم يعد التحليل النفسي موضوعا طبيا خالصا"[3]، فإننا نعتقد أن الجهاز المفهومي والقدرة التنظيرية الكامنة في هذا الكتاب لا شكّ هي نتيجة معاناة فلسفية طويلة، إلى جانب تراكم الملاحظات الاكلينيكية الطبية.

2- مبادئ التحليل النفسي:

أشرنا سابقا إلى أن مصطلح "التحليل النفسي" يحمل دلالتين:

[1] - سيغموند فرويد، حياتي والتحليل النفسي، ترجمة مصطفى زيور، عبد المنعم المليجي، دار المعارف، 1994، ص 87.

[2] - المرجع نفسه، ص 105.

[3] - المرجع نفسه، ص 95.

الأولى: الطريقة التي اتبعها فرويد لعلاج مرضاه، والتي أحلّها محلّ التنويم المغناطيسي في الوصول إلى الحوادث المدفونة في أعماق النفس، وقد استخدم هذه التسمية لكي يؤكّد ناحية "التحليل" من جانب المعالج، فهو يحلّل ما يقوله المريض لكي يصل إلى ما يعتبره أساسا للأعراض العصبية.

الثانية: مجموع النظريات التي وصل إليها فرويد فيما يتعلّق بتكوين نفس الإنسان، والتي وصل إليها بفضل الطريقة السابقة، فما وصل إليه فرويد من نتائج أثناء عملية التحليل لمختلف المرضى جعله أساسا لبناء "علم" التحليل النفسي الذي يختلف عن علم النفس التقليدي.

2-1- طريقة التحليل النفسي: تتلخص في أن يطلب الطبيب من المريض أن يترك العنان لأفكاره لتتداعى بشكل حرّ، وبمساعدة الطبيب وبعد جهد ووقت طويل يصلان معا إلى العناصر الانفعالية القديمة التي تفسّر الأعراض الحديثة في حياة المريض. وخلال ذلك يتعلّق المريض بالمحلّل (تعلّق شبيه بتعلّق الطفل بأمه أو أبيه)، وعلى الرغم من ضرورة التخلّص من هذا التعلّق أو "الإحلال"، أي إحلال الطبيب لذات المحلّ الذي كان يحلّ فيه الأب أثناء طفولته، وذلك لتدعيم ذاتيته المستقلة والخروج من التبعية. هذا ويشمل التحليل النفسي تحليل الأحلام التي يراها المريض في منامه، وخصوصا التي يراها أثناء فترات العلاج أو التي يتكرّر ورودها.

2-2- نظرية التحليل النفسي: نظرية التحليل النفسي هي نتاج الصورة التي كوّنها فرويد وغيره من الباحثين عن النفس بفعل استخدام طريقة التحليل النفسي، وتقوم هذه النظرية على مبادئ أساسية هي:

2-2-1- مبدأ الحتمية السيكولوجية: مؤداه أنه لابدّ لكلّ حادثة نفسية من علّة ترجع إليها، فليس هناك من محتويات العقل ما يمكن أن ينسب إلى الصدفة العارضة، فما نسميه مثلا "فلتات لسان" أو كره لحيوان أو شكل أو لون، أو الميل لشخص أو النفور منه...الخ كلّها محدّدة بماضي حياة الفرد، أي تعود إلى مرحلة الطفولة، وهذا يتّسق مع طريقة التحليل النفسي في ايجاد الارتباط المادي بين محتويات العقل القديمة والحديثة. وقد استتبع الأخذ بهذا المبدأ مبادئ فرعية هي:

أ- مبدأ الديناميكية أو الفاعلية النفسية: النفس من منظور التحليل النفسي تشمل "قوى" محرّكة فعّالة لا مجرّد صور ساكنة. فهذه القوى دائمة الضغط والتفاعل، فليس هناك ظاهرة نفسية إلاّ وهي نتيجة تغلّب إحداها على الأخرى. النسيان مثلا ليس مجرّد سقوط عناصر من الذاكرة، بل هو آلية وقائية دفاعية للحفاظ على الانسجام النفسي العام، وفلتات اللسان ليست مجرّد كلمات صدرت "عفوا" بل دفعت دفعا إلى نطقنا بواسطة القوى اللاشعورية لتؤدي غرضا.

ب- مبدأ التوازن: لا تنشأ في النفس قوة أو نزعة إلاّ وتنشأ معها بالضرورة قوّة أو نزعة مضادة، ويكون سلوك الإنسان ناتجا عن محصّلة النزعتين. وهذا المبدأ من أهم المبادئ التي أخرجها التحليل النفسي. مثال: الشخص المحبّ لعائلته(أبه، أمه، زوجته، أبنائه) قد حمّل نفسه أعباء ومسؤوليات نفسية تجعل منه بدون أن يشعر عدوّا لأولئك الذين يحبهم. فتضحياته بملذاته وأغراضه تجعله يحتمل ذلك بطيبة خاطر ظاهريا، ولكنه في باطنه البعيد عن شعوره ثائر على هذه القيود. ومعنى ذلك أن الإنسان حيث يحبّ بشعوره يكره من أعماق اللاشعور، لأن محبة الغير تتنافى مع الأنانية المطلقة وهي مبدأ اللاشعور، وهذا التناقض عام في سلوك الإنسان.

ج- مبدأ التحوّل: الطاقة النفسية الحيوية قابلة للتحوّل من مجرى إلى آخر، وفرويد يطلق على مجموع الدوافع اسم "الطاقة الغريزية" أو الليبيدو. وهذه الطاقة تتحوّل من اتجاه إلى آخر في حياة الإنسان، وهذه القدرة على التحوّل هي أساس التطوّر في الحياة النفسية، وهي ما يجعل الطفل يمرّ من دور "الإشباع الذاتي" إلى دور النرجسية (حب الذات) إلى دور المحبة الخارجية، وهي أيضا ما يمكّن من حدوث "الإعلاء" Sublimation، أي توجيه الطاقة الليبيدية نحو غايات اجتماعية وثقافية، وهذا هو أساس الرقي الإنساني (الحضارة)[1].

ويمكن إجمال أهم النقاط التي اهتمّ بها التحليل النفسي فيما يلي: دور العوامل اللاشعورية في سلوك الإنسان- الاهتمام بدراسة الشخصية السوية والشاذة معا- التأكيد على دور الطفولة في تحديد الشخصية- أثر الغريزة الجنسية (الليبيدو) في الحياة النفسية- تجاوز ثنائية الجسم/النفس والتأكيد على وحدة الإنسان.[2]

3- اتجاهات التحليل النفسي ومجالاته:

للتحليل النفسي ثلاثة تيارات كبرى، منحدرة عن ثلاث نظريات لكبار المحللين النفسيين:

- التيار الفرويدي: وهو الذي تم التعريف به سابقا.

- تيار كارل يونغ: (1875-1961) من أشهر مؤسسي علم النفس التحليلي، اهتمّ باللاشعور الجمعي بدلا من اللاشعور الفردي الذي ركّز عليه فرويد، المحلّل من منظوره يتورّط أكثر اتجاه مريضه، يكلّمه إنسان لإنسان.

[1] - محمد فؤاد جلال، مبادئ التحليل النفسي، مؤسسة هنداوي، مصر، 2017 ، ص ص 51-56.

[2] - أحمد عزت راجح، أصول علم النفس، دار القلم، بيروت، لبنان، دط، دس، ص 64.

- تيار جاك لاكان (1901-1981): محلّل نفسي فرنسي، اشتهر بقراءته التفسيرية لسيغموند فرويد، وبمساهمته في التعريف بالتحليل النفسي في فرنسا. اللاشعور مبني في نظره كلغة، والكلمات لها أهمية بالغة في طريقة العلاج[1].

أما بخصوص ميادين التحليل النفسي فيمكن الإشارة إلى:

أ- الطب: الميدان الأساسي الذي نجح فيه التحليل النفسي هو ميدان العلاج، علاج الاضطراب العصبي بأنواعه أولا ثمّ علاج الأمراض العقلية ثانيا. وهذا الميدان هو الذي نشأ فيه التحليل النفسي وترعرع. من هذا المنطلق يكون التحليل النفسي علما تجريبيا فوق كونه علما نظريا.

ب- التربية: استثمرت نتائج التحليل النفسي في المجال التربوي، حيث ساهم الكشف عن العوامل اللاشعورية المؤثرة في بناء الشخصية، في فهم الدوافع الأساسية للسلوك ومعالجتها وتهيئة الظروف لإعلائها. لأن الإعلاء هو أحد أغراض التربية، إذ تتحول فيه الطاقة الغريزية إلى مسالك لها قيمة اجتماعية وثقافية، والإعلاء كنوع من الإنتاج الفعلي يعطي الغريزة بديلا عن الإشباع المباشر الذي لا سبيل إليه. ومن هنا ضرورة أن تتوفّر للطفل ظروف ملائمة في مراحل نموّه المختلفة.

ج- الفنّ: الفن في مختلف صوره ما هو إلاّ نوع من التعبير عن الطبقات العميقة في العقل بما تحويه من رغبات ونزعات مختلفة مكبوتة، لم تجد إشباعا في الحياة اليومية فتحولت في حياة الفنان إلى شعر أو نثر أو رسم أو رقص أو موسيقى.

هذا إضافة إلى ميادين التاريخ، الحضارة، الفلسفة...الخ، حيث فتحت نظرية التحليل النفسي آفاق جديدة أمام الفكر الفلسفي، فقد مكنت من تجاوز الفلسفة التقليدية القائمة على مبدأ التماهي بين الوعي وحقيقة الإنسان، فاتحة المجال لمراجعة هذا التصور وطرق أبواب وموضوعات المهمّش واللامفكّر فيه والمنسي.

4- مناقشة:

[1] - https://psychaanalyse.com/pdf/trois_grands_courants_psychanalytiques.pdf

رغم أن نظرية التحليل النفسي قدّمت أفكارا وتصورات مكّنت من تفسير العديد من المظاهر السلوكية، وساهمت في علاج الكثير من الأمراض النفسية، إلاّ رغبة أصحابها في جعلها نظرية فلسفية شاملة قادرة على تفسير جميع مظاهر الثقافة الإنسانية، طرح الكثير من التجاوزات وتحميل التحليل النفسي ما لا طاقة له خصوصا وأنها تنظر إلى الإنسان كحزمة من الغرائز، وتعمل على تفسير كلّ شيء بالغرائز. لقد حاول فرويد أن يجعلنا " نعتقد أن التحليل النفسي ليس (تصورا للكون) ولا يمكن البتة أن يصبح كذلك"[1]. بمعنى أن يعمل ما بوسعه لتجنّب الدخول في خانة الفلاسفة، رغم أن تأملاته لن تقتصر على الظواهر المرضية، بل امتدت بعيدا لتشمل الطبيعة والثقافة، والتاريخ والدين والفن والأساطير...الخ، حتى أصبح التحليل النفسي - بجهازه المفهومي المنطلق من نظرية الغرائز ومفاهيم المقاومة والكبت والجنسية واللاشعور وخبرات الطفولة- يفسّر كلّ ظاهرة انطلاقا من نفس التصور بواسطة نفس المفاهيم، ومع ذلك يتجنّب ما أمكن إدراج نفسه في سياق الفلاسفة، حتى بلغ به الأمر أو الحذر درجة القول بإمكانية رفض بعض نظرياته التي وصل إليها بالتأمّل لا بالتجربة والملاحظة، حيث يقول: " هذه الأفكار (يقصد ما يشكّل الميتاسيكولوجيا وإيروس وتاناتوس) بمثابة بناء نظري إضافي للتحليل النفسي، يمكن لأي جانب منه أن يترك أو يعدّل دون خسارة أو أسف حالما نتبيّن عدم صلاحيته"[2]. لذلك عمل كثيرا على إيجاد الدلائل المادية المؤكدة لتصوراته الميتاسيكولوجية، وعادة ما ينجح في جعل البيولوجيا تؤكد مشروعية تأملاته، مثل تبرير غريزة الحياة وغريزة الموت. لكننا نعتقد أن التحليل النفسي في الأمر لم يكن مجرّد أسلوب علاجي في الطب النفسي، بل هو عبارة عن نظرة شاملة للكون، فلسفة لها خصوصيتها المرتبطة بتصورها الخاص للإنسان، والكون والمجتمع والتاريخ والحضارة.

خاتمة:

يستفاد مما سبق أن التحليل النفسي مصطلح يحمل دلالتين: الأولى باعتباره منهجا وطريقة علاجية اتبعها فرويد ومن جاء بعده لشفاء مجموعة من الاضطرابات العصبية، وهذا المعنى ضيق ومحصور في المجال الطبي، أما الدلالة الثانية فتعتبره نظرية شاملة كوّنها فرويد وغيره حول النفس البشرية، وهذه الدلالة الأخيرة هي ما جعلت التحليل النفسي لا يبقى محصورا في مجال علم النفس، ويمتدّ إلى ميادين ومجالات فكرية متعدّدة (المجتمع، التاريخ، الفن، الفلسفة، الحضارة....)، فيكون بذلك تيارا فكريا من أكبر تيارات الفكر المعاصر.

[1] - سيغموند فرويد، مستقبل وهم، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط4، 1998، ص 50.

[2] - سيغموند فرويد، حياتي والتحليل النفسي، مرجع سابق، ص 89.

المحاضرة الثانية عشر: التيار السلوكي (السلوكية) : Behaviorisme

الهدف: التعريف بالتيار السلوكي ومبادئه الأساسية

مقدمة:

التيار السلوكي أو السلوكية جاءت بعد الانتشار الواسع الذي عرفه اتجاه التحليل النفسي على يد سيغموند فرويد، ومن أهمّ العوامل التي ساعدت على ظهور هذا التيار: الانتشار الواسع للاتجاهات الداعية لتحقيق الموضوعية في علم النفس، وظهور نظرية التطور لداروين وما نتج عنها من اهتمام بعلم نفس الحيوان، بالإضافة إلى تأثير المدرسة الروسية الفيزيولوجية((المنعكس الشرطي) خاصة مع بافلوف. والسلوكية من أكبر وأشهر تيارات الفكر بصفة عامة، وعلم النفس بصفة خاصة، فما حقيقة هذا التيار؟ ما هي دلالته ميتودولوجيا وفلسفيا؟ وما هي أهم المبادئ التي يرتكز عليها؟

1- التعريف بالتيار السلوكي أو السلوكية: (*)Behaviorisme

السلوكية اسم مشتق من السلوك، ويطلق على النظرية التي وضعها الأمريكي " جون واطسون" (1878-1952) إثر اطّلاعه على تجارب "بخترف" و"بافلوف" في دراسة الأفعال المنعكسة الشرطية. وهي تفسّر سلوك الإنسان والحيوان بإرجاعه إلى ردود فعل ناشئة عن تأثير الأسباب الخارجية.

والسلوكية طريقة علمية ومذهب فلسفي معا:

- طريقة علمية: لأنها نسج على منوال العلوم الطبيعية في تطبيق المنهج التجريبي، وتقصر موضوع علم النفس على دراسة السلوك دراسة موضوعية، باعتباره استجابة فيزيولوجية لمنبهات خارجية، أو نتيجة تأثير متبادل بين الكائن الحي وبيئته.

- مذهب فلسفي(*): ينكر قيمة الاستبطان والشعور ويردّ العمليات الذهنية إلى حركات جسمانية، ويقول بالحتمية والتطور، ويرجع السلوك إلى مجرّد التكيف الآلي، ويجعل الظواهر النفسية ظواهر ثانوية ناشئة عن أسباب مادية [1].

(*) - Behaviorisme من الكلمة الانجليزية Behavior وتعني السلوك.

(*) - يشير "لالاند" في موسوعته الفلسفية أن "أندري تيلكان" André Tilkuin نشر كتابا كبيرا وموثّقا جدّا حول موضوع السلوكية، ورأى أن السلوكية ليست "علم السلوك" كما يقول غالبا رائدها "جون واطسون" (العلم الذي كان يفترض من جهة ثانية Behavorique، مسلكيا)، بل هي عقيدة فلسفية وحتى ماورائية، ميتافيزيقية، مميزة بخمس أطروحات أساسية: الأحادية المادية والحتمية- حصر الظاهرة النفسية بتفاعل الجسم العضوي والبيئة- التأكيد على أن

والسلوكية هي تيار في علم النفس الحديث يعتبر أن الموضوع الوحيد الممكن لعلم نفس علمي هو السلوك القابل للملاحظة والقياس، أي مجموع ردود أفعال الحيوان أو الإنسان القابلة للملاحظة من الخارج، ودون الحاجة إلى ما يخبره الفرد من حالات شعورية أثناء ملاحظته أو إجراء التجارب عليه. لذلك تاريخيا، نشأ هذا التيار كردّ فعل على المقاربات والدراسات المسماة ذهنية، أي التي ترجع كلّ فعل إلى الذهن، وتتبنى الاستبطان كمنهج للولوج إلى فهم الظاهرة النفسية.

ميلاد السلوكية يعود رسميا إلى سنة 1913، عندما كتب "جون واطسون" مقالا بعنوان " علم النفس كما يراه السلوكيون"، حيث بيّن أن علم النفس إذا أراد أن يكون علما طبيعيا، فعليه أن يقتصر على الأحداث الملاحظة والقابلة للقياس، وأن يتخلّى، على المستوى النظري، عن كلّ التأويلات التي تقوم على مفاهيم من قبيل الشعور، وعى المستوى المنهجي، بإدانة استعمال الاستبطان، الذي لا يفيد علم النفس تماما مثلما لا يفيد الكيمياء أو الفيزياء. وقد جعل "واطسون" من التعلّم موضوع مركزي لدراسة السلوك الذي يجب أن يقارب فقط من زاوية السلوكات القابلة للقياس، والناتجة كردود فعل على مثيرات البيئة. هذا الموقف الذي دافع عنه "واطسون" سيتطابق مع ما سيسمّى فيما بعد ب " **السلوكية المنهجية**" تمييزا لها عن باقي اتجاهات هذا التيار.

وخلال سنوات 1940-1950 أدخل مواطنه " بورهوس فردريك سكينر" Burrhus Frederic Skinner(1904-1990) مفهوم "الاشراط الإجرائي" Conditionnement opérant على قاعدة الملاحظات التي سجّلها حول الحيوانات الموضوعة في نماذج إجرائية، التي تتعلّم من خلالها عن طريق المحاولة والخطأ، الأفعال التي يجب القيام بها للحصول على استجابة. وقد ارتكز "سكينر" على قانون "ثورندايك" (قنون الأثر، التكرار، الاستعداد والانتماء) لتطوير مفاهيم: التعزيز، التشكيل، والتعلّم المبرمج. هذه المبادئ تشير إلى اختلاف عميق مع "السلوكية المنهجية" لجون واطسون، وذلك بتقبّل فكرة أن المتغيرات الداخلية للفرد يمكن أن تتدخّل مثل الأفكار والانفعالات، ولكن باعتبارها أحداث "خاصة" يمكن أن تطبّق عليها جميعا مبادئ علم النفس الإجرائي، ممّا يسمح بالقول أنّ "الكلّ من

الجهاز العصبي يعمل دائما "بأقواس تامة" دون أن تتمكّن الطاقة الواردة من الضياع في المراكز، ودون أن تحدث فيها الظواهر المولّدة لتيار عصبي صادر- تصوّر علم النفس باعتباره علما تطبيقيا، يصوغ القوانين التي يمكن بموجبها توقع الاستجابة من خلال معرفة الدافع- تواصل الحياة الحيوانية والحياة البشرية والانتقال من إحداهما إلى الأخرى من خلال التطوّر. (أنظر: أندري لالاند، الموسوعة الفلسفية، ترجمة خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، باريس "2، 2001. ص 133)

[1] جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت،لبنان، الجزء الأول، 1982، ص 671-672.

السلوك" بما فيها الأحداث الذهنية، ومن هنا اعتبار هذه المقاربة مقاربة **"سلوكية راديكالية"**[1]. هذا ونشير إلى أن السلوكية سيطرت تقريبا مجال علم النفس التجريبي، خلال سنوات 1930-1960، إلى أن تراجع تأثيرها نتيجة تطوّر النظرية المعرفية (المقاربة المعرفية).

2- أنواع السلوكية وروادها:

لا يوجد تصنيف متفق عليه عالميا، ولكن من العناوين المعطاة لبعض فروعها المختلفة يمكننا أن نميّز بين:

أ- السلوكية المنهجية: تشير سلوكية واطسون إلى أن الأحداث العامة (أي سلوكيات الفرد) هي الوحيدة التي يمكن مراقبتها بموضوعية، ولذلك ينبغي إهمال الأحداث الخاصة (الأفكار والمشاعر، وقد أصبح هذا المنهج أساس مقاربة التعديل السلوكي المبكرة في سبعينيات وأوائل ثمانينيات القرن العشرين.

ب- السلوكية الراديكالية: تنص نظريات سلوكية "بورهوس فريدريك سكينر" على أهمية معرفة العمليات الجارية ضمن العضوية الحية، وخصوصاً الأحداث الشخصية، كما تقترح أن المتغيرات البيئية تتحكم أيضاً بهذه الأحداث الداخلية بقدر ما تتحكم بسلوكيات المراقِب، وتشكل السلوكية الراديكيلية الفلسفة الجوهرية للتحليل السلوكي، واستخدم "ويلارد فان أورمان كواين" العديد من أفكارها في دراساته على المعرفة واللغة.

ج- السلوكية الغائية: وهي تالية لمنهجية سكينر، وتعتبر هادفة وقريبة من الاقتصاد الجزئي، وتركز على المراقبة الموضوعية على عكس العمليات الإدراكية.

د- السلوكية النفسية: اقترحها "آرثر دبليو. ستاتس"، وتعتمد بخلاف مناهج السلوكية السابقة لكل من سكينر، وهال وتولمان، على برنامج بحثي بشري يتضمن أنماطاً متنوعة من السلوك البشري، وتقدم مبادئ تعلّمية جديدة نوعية للبشر دون الحيوانات، كالتعلم التراكمي[2].

[1] - https://lescourantspedagogiques.weebly.com/le-courant-beacutehavioriste.html

[2] - https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%B3%D9%84%D9%88%D9%83%D9%8A%D8%A9

ه- السلوكية التفاعلية (الاجتماعية): أسسها "جاكوب روبيرت كانتور"(1888-1984) قبل دراسات سكينر.

ومن أهمّ رواد التيار السلوكي: إيفان بافلوف، جون واطسون، إدوارد لي ثورندايك، بورهوس فردريك سكينر.

3- مبادئ السلوكية:

- وجوب دراسة السلوك الملاحظ فقط، باعتبار أن الإدراك cognition أو الحالات الذهنية الداخلية والمزاج أو الحالة النفسية ، أو الاتجاهات والقيم هي موضوعات ذاتية جدا ولا يمكن بالتالي أن تكون موضوعا للبحث والدراسة العلمية .

- التعلّم يظهر نتيجة لتفاعلنا مع البيئة المحيطة بنا، وبالتالي فان البيئية هي التي تشكل سلوكنا.

- السلوك يتكوّن من عناصر قابلة للتحليل بواسطة مناهج البحث العلمية الموضوعية.

- السلوك مكوّن أساسا من إفرازات غددية وحركات عضلية، وهو بهذا خاضع للعمليات الفيزيوكيميائية (أعضاء، مواد كيميائية).

- الانفعالات هي استجابات جسمية لمثير معيّن (المثير ← الاستجابة).

- دور البيئة في تعلّم السلوك أكثر تأثيرا من الوراثة.

- للتعزيز والعقاب دور في تحديد السلوك.

4- مناقشة:

لقد أثرت النظرية السلوكية بمبادئها وتجاربها على عملية التعلم والتعليم، فقد صيغت الأهداف بشكل سلوكي يسمح بقياسها ووصف الأداء المتوقع أن يقوم به الطالب بعد الانتهاء من درس أو وحدة تعليمية

معينة، أما المحتوى فترى النظرية السلوكية أهمية التدرج فيه من السهل إلى الصعب، ومن البسيط إلى المعقد، ومن المحسوس إلى المجرد مع استخدام التعزيز والمتابعة لسلوك المتعلم.
كما ترى النظرية السلوكية أنّ أكثر الطرق فاعلية في التعلم الطريقة المباشرة والتعلم المبرمج، وأن يكون تقويم التعلم على أساس أداء السلوك. وقد جاءت النظرية السلوكية كمحاولة لمعرفة السلوكيات المرتبطة بأفكار وحالة الإنسان النفسية وعملت على معالجة السلوك السلبي وتعديله (العلاج السلوكي)، لكن من وجهة نظر أخرى لهذه المدرسة مساوئ وسلبيات، بلغت حدّ أن اعتبر البعض أن "علم النفس قد انتحر على يد السلوكية"[1] من أبرزها:

إهمال دور الإنسان :جرّدت النظرية السلوكية الدور الحيوي للإنسان على صنع وتحديد السلوك، كما أنها لم تسمح له بإبراز قدرته على التعامل مع الظروف المحيطة والتكيّف معها، وجعلت البناء الإنساني مجرد بناء آلي يتكون من أفعال وردود أفعال فقط.

تغييب المعتقدات الداخلية للأفراد :تنكر هذه النظرية وجود المعتقدات والقيم الداخلية الموجودة في باطن كل إنسان وتنكر تأثيرها على توجيه سلوك الفرد.

التركيز على السلوكيات الحاضرة :تهمل السلوكية السنوات الماضية في حياة أي فرد ولا تراعيها أو تدخلها في سلوك الشخص، بل تركز على السلوك الآني (الحاضر) وهذا يسبب تجاهل بعض السلوكيات وبقائها دون علاج.

عملية مكتسبة وتستغرق زمناً :النظرية السلوكية عملية مكتسبة تعتمد على التجارب والملاحظة وذلك يستغرق وقتاً طويلاً للحصول على نتيجة أو حقيقة ما.

التركيز على العلاج السلوكي :تركز هذه النظرية على العلاج والتخلّص من الأعراض أو السلوكيات الخاطئة دون مراعاة الأسباب التي أدّت إلى هذا الاضطراب النفسي أو دراستها .

خاتمة:

[1] - أحمد عزت راجح، أصول علم النفس، دار القلم، بيروت، لبنان، دط، دس، ص 63.

لا شكّ أن التيار السلوكي بمختلف اتجاهاته ونظرياته، ساهم بشكل كبير في تطوير الدراسات والأبحاث السيكولوجية، خاصة ما تعلّق منها بالجانب السلوكي، تحليلا وعلاجا، واقتراح طرق للتعلّم، وهو يعبّر في عمقه عن عقيدة فلسفية، مترتبة عن رؤية مادية تجريبية تجمع علوم الكون في نظرة واحدة.

المحاضرة الثالثة عشر: التيار البراغماتي (البراغماتية) Pragmatisme

الهدف: التعريف بالتيار البراغماتي ومبادئه الأساسية

مقدمة:

أشرنا في المحاضرات السابقة إلى أن الفلسفة الغربية المعاصرة تصنّف في الغالب إلى فلسفة قارية Philosophie continentale (ألمانية، فرنسية، إيطالية...)، وفلسفة أنجلوسكسونية Philosophie Anglo-saxonne (انجلترا، أمريكا...). ومن أكبر تيارات الفلسفة الأنجلوسكسونية التيار البراغماتي أو البراغماتية، وهو تيار فكري معاصر ظهر في أمريكا نهاية القرن 19، وعرف انتشارا واسعا بعد ذلك في أوروبا. فما حقيقة هذا التيار الفكري؟ وما هي أهم مبادئه ومسلماته؟

1- التعريف بالتيار البراغماتي أو البراغماتية: Pragmatisme

البراغمتية أو الذرائعية أو الأداتية، هي نتاج عقل غربي أنجلوسكسوني، وهو العقل الثقافي الذي أنتج التيار الحسي التجريبي، بزعامة وماس هوبز، وجون لوك، ودفيد هيوم، وفرنسيس بيكون وغيرهم، مبتعدا بذلك عن البناءات الفكرية القائمة على مرجعيات مثالية عقلانية، وعلى مبادئ صورية مجردة. لهذا وصف " جون ديوي" البراغماتية بكونها فلسفة معاكسة للفلسفة الكلاسيكية القائمة على التصورات والمفاهيم القبلية. فالواقع المحسوس هو الذي يفرض حقائقه على الادراكات العقلية وليس العكس[1].

والبراغماتية اسم مشتق من اللفظ اليوناني Pragma، ومعناه العمل، وهي مذهب فلسفي يقرّر أن العقل لا يبلغ غايته إلاّ إذا قاد صاحبه إلى العمل الناجح، فالفكرة الصحيحة هي الفكرة الناجحة، أي الفكرة التي تحققها التجربة، فكلّ ما يتحقق بالفعل فهو حق، ولا يقاس صدق القضية إلاّ بنتائجها العملية[2].

نشأ التيار البراغماتي في أمريكا مطلع القرن 20 على يد ثلاثة من أعلام المفكرين: تشارلز بيرس (1839-1914) و وليام جيمس (1842-1910) وجون ديوي (1859-1952). وبحكم نشأته في محيط اقتصادي وصناعي جدّ متطوّر، تقرّر استنكار الفلسفة التقليدية ، والسعي لبناء منهج عصري يساير حاجات الناس المتجدّدة، وتقلبات رغباتهم اليومية، منهج يدعو إلى الانصراف عن الفكر للفكر نحول العمل، استجابة لضرورات الحياة واستشرافا للمستقبل. وقد أدرج بيرس سنة 1878 لفظ "براغمة" في كتابه " كيف نجعل أفكارنا واضحة؟". وقد اعتبر "وليام جيمس" أن كلّ موضوع هو مجرّد وسيلة لتحقيق أغراض الإنسان النظرية منها والعملية[3].

---

[1] - زكي نجيب محمود، من زاوية فلسفية، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط4، 1993، ص 222.

[2] - جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت،لبنان، الجزء الأول، 1982، ص 203.

[3] - وليام جيمس، البراغماتية- ترجمة محمد علي العريان، دار النهضة العربية، القاهرة، مصر، 1965، ص 64-65.

2- مبادئ البراغماتية وأبرز روادها:

2-1- مبادئ البراغماتية:

ترتكز البراغماتية على جملة من المبادئ أهمها:

أ- التجريبية العلمية: البراغماتية تجسيد للاتجاه لعلمي التجريبي، وهي تتقاطع في بعض الخصائص مع التيار الاسمي والوضعي في رفضها المطلق للمفاهيم الميتافيزيقية، والتجريد والتعميم. البراغماتية ترفض التأمّل العقلي وتصبو إلى ربط الفكرة بالواقع والتجربة، فالتفكير التأملي لا يجوز إلاّ إذا ارتبط بالفروض التي تنتظر التحقّق عمليا، فالتفكير مقبول فقط إذا كان استدلالا عقليا يسبق الاستدلال التجريبي.

ب- العبرة بالنتائج: أوّل مقياس تؤسّس عليه قيمة أي فرض من الفروض أو منطلق من المنطلقات، هو تحقيق منفعة عملية. وكلّ فكرة أو بحث لا تحمل في طياتها مشروعا قابلا لإنتاج آثار عملية نفعية تعتبر خرافة. والمعتقد الديني يعتبر صادقا متى ترتبت عليه آثار ونتائج عملية في حياتنا اليومية، وهذا يعني أن صدق المعتقد، وصدق المعنى مرهونان بآثارهما العملية[1]. البراغماتيون يقبلون كلّ التيارات: التفكير المنطقي ونشاط الحواس، وحتى التجارب الصوفية يقبلونها إذا ما ترتبت عنها حواصل عملية. ومن هنا نفهم كيف تحوّلت الفلسفة معهم إلى منهج لاختبار فاعلية الأحاسيس والأفكار في الحياة، وكيف نصرف التفكير معهم من المبادئ والأوليات إلى النتائج والغايات. وقد حدّد "شارل بيرس" فكرتين أساسيتين في منهجه هما:

- الفكرة الحقيقية هي التي تجد طريقها إلى التطبيق العملي، وتقودنا إلى الغاية المقصودة.

- فكرتنا عن موضوع ما، هي فكرتنا عن النتائج المترتبة عن الآثار العملية.

ج- القطيعة مع الماضي: من خصائص المنهج البراغماتي، تجاهل الماضي والاتجاه نحو المستقبل، والمنطلق هو الحاضر نحو المستقبل دون الرجوع إلى الماضي، وبالتالي عدم البحث عن مراحل تكوين الأفكار بل الاتجاه نحو المستقبل " إن البراغماتي يدير ظهره للماضي، ولكلّ الأفكار والتجريدات السابقة، ويركّز بشكل رئيس على العمل والأداء والقوة".

[1] - المرجع نفسه، ص 239.

د- الوعي الواقعي: من مبادئ البراغماتية الحرص على الوعي العملي والتطبيقي الشديد إزاء مختلف المعارف التي يتعامل معها، ويبتعد قدر الإمكان عن المناقشات المجردة الخالية من المعنى والغير قابلة للتطبيق، فكلّما كان الوعي أقرب إلى الواقع، ومرتبط بشكل مباشر بالأهداف العملية والواقعية كان أقرب إلى الصدق والحقيقة.

-البراغماتية لا تهتمّ بمصدر الأفكار ولا بكيفية نشأتها، بل تركّز على نتائجها الملموسة.

- العقل البشري في نظر البراغماتيين أداة لفهم الواقع وتغييره، وكلّ إنتاج فلسفي وفكري ما هو إلاّ وسيط لخدمة الحياة والواقع.

- الفكرة الصحيحة هي التي تكون قابلة للتجسيد الواقعي، ولها نتائج مفيدة على المدى الحاضر أو المتوسّط أو البعيد.

-المطلقية في القوانين والمفاهيم والأفكار أمر غير واقعي، فكلّها قابلة للتغيير.

- الدين والمعتقد يكون صحيحا بقدر ما يقدّم من فوائد تنعكس على الفرد والمجتمع.

- الأفكار والآراء ليست إلاّ ذرائع يستعين بها البشر لتحقيق التطوّر والكمال والحفاظ على البقاء.

2-2- أبرز رواد البراغماتية: من أشهر وأبرز الشخصيات التي ساهمت في ظهور التيار البراغماتي نجد:

أ- شارل أندرس بيرس (1839-1914): فيلسوف أمريكي، مؤسّس المذهب البراغماتي، والبداية كانت مع مقاله المشهور سنة 1878 " كيف نجعل أفكارنا واضحة". حصيلته الفكرية هي نتاج دراساته المستمرّة لمختلف النظريات والمذاهب الفلسفية ومنها الفلسفة الألمانية، التي وصفها بأنها ليست ذات قيمة تذكر، وعلّل منظوره بكون رؤيته الفلسفية الحقيقية يمكن وصفها بأنها محاولة فيزيائي حاول أن يصوّر بنية الكون تصويرا لا يتعدّى ما تسمح به مناهج البحث العلمي، مستعينا بالمعطيات العلمية والعملية، التي نثبت مدى صحتها وخطئها من خلال ما تقدّمه المشاهدة من دلائل واقعية ملموسة[1].

إن البراغماتية من وجهة نظر "بيرس"، هي فلسفة عملية تجريبية تستبعد التأمّل العقلي المجرّد، والبحوث الميتافيزيقية العقيمة، وبالتالي فهي نمط من أنماط الفلسفة العملية المفتوحة على التغيّر حسب

[1] - فؤاد كامل، أعلام الفكر الفلسفي المعاصر، دار الجيل، بيروت، لبنان، "1، 1993، ص 100.

تطوّر المعطيات، ولا وجود بذلك لفكرة نهائية مطلقة أو معصومة من الخطأ، بل ينبغي إخضاع الفكرة للمنطق العلمي والعملي، والحكم عليها من خلال النتائج التي تحققها حاضرا أو مستقبلا[1].

ب- وليام جيمس (1842-1910): فيلسوف وعالم نفس أمريكي، من أهمّ مؤلفاته: "البراغماتية"، و"أصول علم النفس". تقوم فلسفته على قاعدة مفادها تحديد مفهوم المعنى وعلاقته بالنتائج العملية، فالفكرة التي ليس لها تجسيد عملي حسّي تبقى بدون معنى. وممّا يميّز براغماتية "جيمس" إضافة إلى فكرة المعنى، مفهوم الصدق أو الحق، ويعني به أن صدق الفكرة يقاس بمدى ما تحققه من قيمة عملية، ومدى الآثار التي تتركها الأفكار والمعتقدات في حياتنا العملية، وقد حاول تجسيد هذا المبدأ الفلسفي حتى في مجال الدين والاعتقاد. فحقيقة وجود الله قيمة ناجعة، وبالتالي هي صادقة لما لها من آثار عملية في حياة المتدينين[2]. وقد أحدث ذلك ردّات فعل نقدية اتجاه هذا المفهوم، خاصة من طرف "شارل بيرس".

ج- جون ديوي (1859-1952): فيلسوف أمريكي تأثر بالبيئة الاجتماعية الأمريكية، وخاصة الحياة العملية التي يغلب عليها الإنتاج المادي، ما جعله يؤمن بالأفكار العملية التي تؤدي إلى آثار عملية.

اعتبر "ديوي" أن تغيير المفاهيم في مختلف المجالات (الاقتصاد، السياسة، التعليم...)، وبلوغ التطور لا يتحقّق إلاّ بواسطة التربية وآلياتها. وهذا ما تناوله في كتبه: "المدرسة والمجتمع"، و "الديمقراطية والتربية"، حيث بيّن أن الهدف الأساسي من التربية، ليس هو محافظة الفرد على عاداته وتقاليده، بل اكتساب منهجية التكيّف والمواءمة بين الإنسان وبيئته. وقد اعتبر أن الواقع التجريبي هو المنطلق القاعدي لمصداقية أي فكرة من الأفكار أو مفهوم من المفاهيم. وقد كان للفكر التربوي لجون ديوي أهمية بالغة في المنظومة التربوية والفكرية للمجتمع الأمريكي والأوروبي، بل والعالمي.[3]

3- مناقشة:

رغم الأهمية البالغة التي حظي بها التيار البراغماتي نظرا لاهتمامه بالجانب العملي، وتشجيعه لمختلف المبادرات الفردية الهادفة إلى ترقية الحياة الاجتماعية و الإنسانية في مختلف المجالات، إلاّ أنه لم يسلم من عدّة انتقادات على المستويين الفلسفي والأخلاقي أهمّها:

---

[1] - زكي نجيب محمود، مرجع سابق، ص 204.

[2] - مصطفى النشار، مدخل جديد إلى الفلسفة، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ط4، 1998، ص 169.

[3] - Jay Stevenson, La philosophie, éd, Marabout, France, 2008, p. 200.

- ربطه الحقيقة بالمنفعة، يعني القول بنسبيتها وتغيرها، ممّا يجعلها تفقد ثباتها وموضوعيتها.

- المنفعة أو المصلحة معيار ذاتي متغيّر، لا يجوز عقليا وأخلاقيا، اعتباره المعيار الأنسب والمناسب للحقيقة.

- إذا من المشروع قياس الحقيقة العلمية التجريبية بمقياس عملي (انطباق الفكر مع الواقع)، فإن الحقيقة العقلية المجرّدة (الدينية والفلسفية) لا تخضع لنفس المعيار.

- على المستوى الأخلاقي، قياس خيرية الفعل بالمنفعة، يحطّ من تعالي وسمو القيم الخلقية.

خاتمة:

النسق البراغماتي ينطلق من الواقع ومتطلباته الآنية، وهذه وضعية تدفع الإنسان إلى اختبار عدد من الممكنات، فان استجاب أحدها للمتطلبات التي يفرزها الواقع المشخّص، كان هذا الممكن نافعا ومن ثمّة، كان هو الأصدق. والإنسان إن هو انطلق من فكرة ما، فليس بغرض اتخاذها كمبدأ مطلق يتحكّم في حياته الفكرية أو يقيم عليه فلسفة مغلقة، وإنما من أجل التحقّق من مدى استجابتها مع حاجاتنا الطارئة وتوافقها مع حياتنا المعيشة.

المحاضرة الثالثة عشر: التيار الظواهري (الفينومينولوجي) Phénoménologie

الهدف: التعريف بالتيار الظواهري ومبادئه الأساسية

مقدمة:

ارتكزت الفلسفة الغربية في القرن 20 على تيارين رئيسيين: التيار التجريبي (الامبريقي) و التيار العقلاني. الفينومينولوجيا أو الظواهرية ستحاول المصالحة بين هذين التيارين (الواقعي والمثالي)، عن طريق الدمج بين التجربة المعاشة L'expérience vécue والمنطق العلمي لتشكيل أداة تمكّن من إعطاء معنى للحياة. الفينومينولوجيا هي محاولة لتجاوز الفلسفة الميتافيزيقة بالدعوة للرجوع إلى الأشياء

ذاتها، رجوع مختلف عن الموقف الوضعي من حيث أنه لا يتعاطى مع الظواهر الإنسانية والاجتماعية كوقائع مادية مشروطة بجملة من الأسباب الخارجية، وإنما كظواهر معاشة، محمّلة بالمعاني والدلالات، أي كما تتقدّم للوعي. من هذا المنطلق نتساءل: ما حقيقة الفينومينولوجيا ؟ وما هي مبادئ الفكر الفينومينولوجي وآلياته المنهجية ؟

1- التعريف بالتيار الظواهري أو الفينومينولوجي: Phénoménologie

الفينومينولوجيا مشتقة من الكلمة الاغريقية Phainomenon وتعني ظاهرة، و Logos وتعني علم/خطاب، فهي علم الظواهر. واصطلاحا هي دراسة ظاهرة أو مجموعة من الظواهر[1].

والفينومينولوجيا بالمعنى العام هي دراسة وصفية لمجموعة ظواهر، كما تتجلّى في الزمان والمكان، بالتعارض إمّا مع القوانين المجرّدة والثابتة لهذه الظواهر، وإمّا مع الحقائق المتعالية المقابلة لها، وإمّا عن النقد المعياري لمشروعيتها. أمّا بمعناها الخاص فتطلق على منهج الفيلسوف الألماني "إدموند هوسرل" (1859-1938) ونسقه[2].

إذا أطلق مصطلح الظواهرية (الفينومينولوجيا) على دراسة الظواهر النفسية أو الأحوال الشعورية دلّت على وصف المعطيات النفسية كما تبدو لنا بالفعل. ويختلف هذا العلم عن علم النفس القديم بحرصه على التقيّد بالواقع وبعده عن كلّ تصوّر سابق أو غرض فلسفي: ولدراسة أحوال الشعور في الفينومينولوجيا مرحلتان: الأولى ملاحظة المعطيات النفسية، ووصفها وصفا دقيقا مستقلاّ عن كلّ تصور سابق. والثانية تحديد البنى العامة للظواهر النفسية كالإدراك، والتصوّر، والتخيّل...الخ.

وإذا أطلق اصطلاح الفينومينولوجيا على دراسة ظواهر الوجود عامة، كان الغرض منه تحديد بنية الظاهرة ومعرفة الشروط العامة لحدوثها، ولهذا العلم مرحلتان: الأولى دراسة الظاهرة الواقعية دراسة وصفية تحليلية، والثانية تفسير تكوّن الظاهرة وبيان ماهيتها[3].

---

[1] - Jacqueline Russ, Badal Leguil, Dictionnaire de philosophie, Bordas, Paris, 2004 ,p. 310.

[2] - أندري لالاند، الموسوعة الفلسفية، ترجمة خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، باريس "2، 2001، ص 973.

[3] - جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت،لبنان، الجزء الثاني، 1982، ص 35.

أوّل من استعمل لفظ الفينومينولوجيا سنة 1764 هو " جان هنري لامبير" (1777-1728) ، واستعمله كعنوان للجزء الرابع من كتاب "الأورغانون الجديد"، وتلاه "إمانويل كانط" في "نقد العقل الخالص" سنة 1780، ثمّ "فردريك هيغل" كعنوان لكتابه " فينومينولوجيا الروح" سنة 1807.

لكن منذ بداية القرن 20 نجد "هوسرل" قد استخدم اصطلاح "الفينومينولوجيا" بطريقة جديدة ومغايرة تماما لطريقة من سبقوه، وذلك في محاولته الجادة لتأسيس علم كلّي جديد قائم على مبادئ يقينية عامة، تكون هي الأساس لكلّ معرفة ممكنة[1].

يعرّف هوسرل الفينومينولوجيا بأنها " علم الماهيات Une science Eidetique"[2]، أي أنها ذلك العلم الخالص الذي يدرس الظواهر باعتبارها ماهيات، وبمعنى آخر إنها " منهج ينحصر في وصف الظاهرة، أو في وصف ما هو (معطى) على نحو مباشر"، أو هي وصف خالص لمجال الواقع المعاش، عكس التصوّر الكانطي الذي يرى أن الظواهر تعرف وحدها دون الجوهر أو الشيئ في ذاته، أي أن الوجود لا يعرف في ذاته".

تهتمّ الفينومينولوجيا بتشكيل التجربة المعاشة كأوّل لقاء وجودي (أنطولوجي) بين الوعي والعالم الذي يعتبر لقاءا سابقا على كلّ تفكير حول هذا العالم، وهذا ما يسمّيه "هوسرل""فينومينولوجيا التأسيس" (*)، حيث تطرح هذه الأخيرة مشكلة النشوء أو التكوّن La genèse، لا بالمعنى البيولوجي لتكوّن الجنين أو نشوء الكائنات (وإن كانت هذه الظواهر لا تخلو من مساءلات فينومينولوجية)، لكن بالمعنى الذي

[1] - سماح رافع محمد، الفينومينولوجيا عند هوسرل، دراسة نقدية في التجديد الفلسفي المعاصر، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، ط1، 1991، ص 57.

[2] -دموند هوسرل، أفكار ممهّدة لعلم الظاهريات الخالص وللفلسفة الظاهرياتية، تعريب، أبو يعرب المرزوقي، دار جداول، بيروت، لبنان، ط1، 2011، ص 22-23.

(*)- يمكن أن نميّز في الفينومينولوجيا بين ثلاثة اتجاهات: - الفينومينولوجيا النقدية مع كانط، وهي تلك التي تسعى إلى تبيان الشروط الممكنة للموضوعية تؤطرها بنية الذات، والتي تحدّد بالمقابل، حدود المعرفة التي تجد نفسها في مواجهة فكر المطلق. – فينومينولوجيا المظاهر التي تحدّدها مراتب ظهور الكائن عند هيغل ومساره الأنطولوجي نحو المعرفة المطلقة (مراحل تطور الوعي من أول معارضته المباشرة بينه وبين الموضوع حتى المعرفة المطلقة). – فينومينولوجيا التأسيس أو النشوء La genèse : عوض البحث عن الشروط الممكنة لكل تفكير أو تعبير أو تدبير وخلافا لتجليات الكائن عبر مراحل أنطولوجية يبتغي من ورائها الفكر المطلق، يطرح هوسرل فينومينولوجيا التأسيس التي عن قاعدة أو دعامة تنبثق من خلالها أو تتأسّس بموجبها، أو ترى الوجود على إثرها كلّ ظاهرة معيّنة.

يجعل من الظاهرة، ظاهرة ذات ماهية وقابلة لتلقّي المعنى الذي يضفيه الوعي عليها في أوّل لقاء له بها"[1].

والفكرة العامة التي يقوم عليها التيار الفينومينولوجي هي " الرجوع إلى الأشياء ذاتها"، أي الرجوع إلى الوقائع المحضة دون التأثّر بالأحكام السابقة المتعلّقة بها. وعلى هذا الأساس تعارض الفينومينولوجيا المذهب التجريبي، خصوصا ذلك القائم على النزعة النفسانية، بحجة أن المذهب التجريبي يخضع الوقائع إلى مقولات فقيرة وغير ملائمة. كما تعارض المذهب العقلي ذا النزعة الرياضية لأنه يجرّد عالم الحياة ويضعه في صيغ شكلية جافة. وتعارض المذاهب المثالية لأنها لا تستند إلى رؤية للواقع، وتعارض القطعية ذات الصبغة الأفلاطونية لأنها تجعل من المعاني حقائق خارجة عمّا هو عيني.

2- مبادئ الفكر الفينومينولوجي وآلياته المنهجية:

المهمّة الأساسية التي نذر لها هوسرل نفسه هي أن يجعل من الفلسفة علما دقيقا، عاما وشاملا. الفلسفة عنده يجب أن تكون علما يبدأ بداية صحيحة ويتحرّى الصواب منذ البداية، عليها أن تكون علما بلا فروض مسبقة. ويرتكز المنهج الفينومينولوجي على مجموعة من المبادئ هي: مبدأ الظهور، مبدأ العودة إلى الأشياء ذاتها، وهو أقوى مبدأ قدّمه هوسرل، إضافة إلى مبدأ الحدس الذي اعتبره أساس الولوج إلى معرفة المعطى الأصلي للظاهرة، ويتفرّع إلى عدّة أنواع حسب طبيعة الظاهرة وحسب المواضيع المراد توظيف الحدس فيها.

أمّا آليات المنهج الفينومينولوجي فيمكن حصرها فيما يلي:

2-1- نقد النزعة السيكولوجية: رغم وقوع "هوسرل" في بداية أعماله الكبرى في النزعة السيكولوجية Psychologisme ، حيث كان يفسّر التصورات الرياضية كالعدد مثلا، تفسير مشوبا بمسحة سيكولوجية، لكنه تخلّى عن هذا المنحى بعد النقد الذي تلقّاه من مواطنه "قوتليب فريجه" (1824-1925)، فتحوّل من نصير للنزعة السيكولوجية إلى واحد من أشدّ معارضيها. وقد ترتّب عن رفضه للمذهب السيكولوجي تأسيسه للفلسفة الفينومينولوجية.

ارتبط ظهور الفينومينولوجيا بأزمة العلوم الإنسانية في القرن 20، فقد أدّى ترقّي البحوث السيكولوجية والاجتماعية والتاريخية إلى تحوّل كلّ علم منها إلى نزعة isme (,Psychologsme

[1] - محمد شوقي الزين، الفينومينولوجيا وفن التأويل، مجلة فكر ونقد، المغرب،العد 16، 1999.

(sociologisme, Historisme)، تريدنا أن نرى كلّ شيء بمنظارها ونردّ كلّ شيء إلى مقولاتها. علماء النفس يردون كلّ شيء إلى علم النفس حتّى قوانين المنطق، وعلماء الاجتماع يفسرون كلّ شيء تفسيرا اجتماعيا...الخ. النزعة السيكولوجية تريد أن تجعل المنطق مجرّد فرع من فروع علم النفس، وكأنّ أي قضية منطقية أو أي معنى لعبارة ما لا يملك أي استقلال عن مجرى الشعور الذاتي الذي اقترن به، وهذا ما لا يقبله "هوسرل"، لأن فلسفته يمكن اعتبارها بمثابة ردّ فعل ضدّ النزعة العلمية المتطرّفة Scientisme التي تقوم على الاعتقاد أنّ كلّ شيء قابل للشرح والتفسير في ضوء العلم الطبيعي. لم يكن "هوسرل" معاديا للعلم وإنما كان يريد أن يكشف مواطن قصور العلم وحدوده، فالعلم يقوم على افتراضات مسبقة عن طبيعة الواقع يسلّم بها ولا يسائلها، ومن ثمّ فهو لا يملك تقديم تفسيرات أولية بالمعنى الذي يصلح أن يكون نقطة انطلاق قصوى أو ركيزة أولى، لأي تفسير عقلاني للعالم. وعلى الفلسفة إذا أرادت أن تكون علما دقيقا أن تعود إلى ما هو معطى في التجربة ي عموميته وقبل أن يناله أي تنظير أو تفسير، ولا بدّ لها أن تقارب ما هو معطى وتتجه إليه بلا تصوّرات أو فروض مسبقة ظاهرة كانت أو خفية[1].

2-2- القصدية L'intentionnalité: أخذ "هوسرل" فكرة القصدية عن أستاذه "فرانز برنتانو"(1838- 1917) الذي يرى أن القصدية هي الميزة الأساسية لكلّ ظاهرة نفسية، ترتبط بموضوعها ارتباطا ملازما. هذا الاكتشاف الذي لولاه لما كان يمكن للفينومينولوجيا أن تقوم في نظر هوسرل. فكرة القصدية أخذت مع "هوسرل" أبعادا جديدة تجاوزت نظرة "برنتانو" لها، فهو يرى أن جوهر فكرة القصدية، هو أنه يحقّق لنا الاتصال مع العالم الخارجي وإقامة جسر معه، فالقصدية هي خاصية كلّ شعور " أن يكون شعورا بشيء"، أي أنها تمثّل ارتباط الشعور بموضوعه، بمعنى توجّه الوعي نحو موضوعه[2]. والخاصية الأخرى التي تتحلّى بها خاصية الوعي هي أنها تتّجه نحو موضوعها وتعنيه بصرف النظر عمّا إذا كان هذا الموضوع موجودا بالفعل أم غير موجود. لكن "ليست كلّ خبرة يرتبط فيها الوعي بموضوع تكون قصدية"، وإنما هي ميزة للخبرات التي تسمّى أفعالا، لأنها تنطوي على الجهد الفعّال، أو كما يسمّيه "هوسرل" القصد الفعّال، بمعنى عدم الفصل بين الذات العارفة والموضوع المعروف. ويميّز "هوسرل" داخل بنية الفعل القصدي بين قطبين رئيسيين هما: أفعال الذات

[1] - عادل مصطفي، فهم الفهم، مدخل إلى الهرمينوطيقا،نظرية التأويل من أفلاطون إلى غادامير، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2007، ص 185-186.

[2] - سعيد توفيق، دراسة في فلسفة الجمال الظواهرية، الخبرة الجمالية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان، ط1، 1992، ص 31.

(الإدراك) Noesis. وهما يناظران ما يسمّيه أيضا الذات المفكّرة Cogito وموضوع التفكير Cogitatum. من هنا تكون الفينومينولوجيا هي علم الموضوعات القصدية للوعي[1].

3-2-- الرد الفينومينولوجي (تعليق الحكم Epochè الإبوخية): لتحقيق حدّ أدنى من الوعي بنقاوة الأسس وخلوّها من الفروض المسبقة، وهو متطلّب أساسي للموقف الفلسفي الحقيقي، يقدّم "هوسرل" منهجا يطلق عليه "الردّ الفينومينولوجي" أو الوضع بين أقواس (التقويس) أو "الإبوخية) وهي من الكلمة اليونانية Epoche وتعني تعليق أو توقّف، أي تعليق الاعتقاد والتوقف عن الحكم. والإبوخية هو قلب المنهج الفينومينولوجي، فالذي يبقى لنا بعد التخلّص من كلّ الفروض المسبقة عن الأشياء هو وحده اليقيني والضروري عن هذه الأشياء. والردّ الفينومينولوجي يمرّ بمرحلتين:

- تعليق الحكم على وجود أو عدم وجود موضوعات الوعي، ما يجعلنا نركّز عليها كظواهر خالصة(كما تتراءى للوعي).

- النظر إلى هذه الموضوعات التي تمّ ردّها إلى ظواهر محضة، لا في جزئيتها وعرضيتها، بل في كليتها وماهيتها (تجاوز الجزئيات العرضية للظواهر ووضعها بين قوسين للوصول إلى الماهيات التي بها يكون الشيء ما هو وبدونها يكون أي شيء آخر، ويطلق على هذه الخطوة الردّ الماهويRéduction eidétique لأنه يردّ الظواهر إلى الخلاصة المتبقية التي تجعلها ذلك النمط بالذات أو الصّنف دون غيره من الظواهر. والإبوخية لا تعني إنكار وجود العالم الخارجي (ولا إثباته)، فنحن لا نحذف الواقع الخارجي أو نقصيه أو نلغيه، وإنما نحن ببساطة، نحيّده ونضعه جانبا. وبهذه الطريقة يتمكّن المرء من بلوغ الموقف الفلسفي القويم. والفلسفة إذ تبلغ هذا الموقف الفينومينولوجي تجاه موضوعات الوعي، لا تشغلها هذه الموضوعات من حيث هي محتويات ذهنية معيّنة، بل تشغلها من حيث هي دلالات أو معان، لنراها كما هي في ذاتها، وعندئذ نرى ماهيتها. وهذه الماهيات تدرك بالحدس أو العيان، أي بالرؤية العقلية المباشرة. وعندما يمثل موضوع معيّن للوعي، فهو يمثل دائما بوصفه ذلك المظهر بالذات وليس مجرّد مظهر، أي أنّ له دلالة Signification أو معنى Sens، هذه الدلالة أو هذا المعنى هو ما تحصره الماهية وتقبض عليه. وبدون هذه الماهيات أو هذه الدلالات فإن الأشياء لا تعني لنا أي شيء على الإطلاق.

[1] - بن مزيان بن شرقي، قواسمي مراد، وآخرون، من مناهج النقد الفلسفي، دروس في المنهجية، دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007، ص 48.

2-4- الأنا المتعالي (الترنسندنتالي): يتضمّن المنهج الفينومينولوجي تطبيقا آخر للإبوخية. فقد قلنا أنّ الردّ الفينومينولوجي يضع بين أقواس كلاّ من العالم الخارجي الطبيعي والافتراضات المرتبطة بالاعتقاد في مثل هذا العالم. لكن هو شيء آخر يظلّ عرضة للإبوخية، وهو الأنا الفردي أو الوعي، فكلّ فعل للوعي يفترض ذاتا أو أنا Ego افتراضا مسبقا. غير أنّ ما يهمّ ليس هو هذه الأنا الخاصة بل ما هو "ماهوي" بالنسبة للأنا. هذه الأنا الفردية هي أيضا يجب أن توضع بين أقواس من أجل أن نعاين ماهية الفرد نفسه. إن ذلك الذي ينخرط في عملية تقويس العالم الطبيعي بما فيه الأنا التجريبية نفسها لا بدّ أن يكون شيئا ما، و"هوسرل" يسمّي هذا الشيء "الأنا الترنسندنتالية" التي تقف خارج العالم. فماهية هذه الأنا المتعالية هي أنها تقف كشرط سابق لأي فعل ذهني أو لأي خبرة على الإطلاق بما فيها جميع أفعال الرد الفينومينولوجي. إنّنا الآن بإزاء بنية ثلاثية للوعي: أنا- أفكّر- بموضوع فكري -Ego-Cogito Cogitatum هذه هي العناصر الثلاثة المتّصلة منطقيا ل: الأنا الخالصة (الأنا التي تفكّر)، والفعل الذهني (الفكر)، والمحتوى (موضوع الفكر).

الأنا المتعالي الترنسندنتالي هي المطلق الوحيد، لأنها تبقى بعد كلّ تقويس، إنها مفترضة سلفا في كلّ فعل للوعي أو الخبرة أيّا كان هذا الفعل، حتّى فعل التقويس نفسه، والأنا المتعالي هي الشرط المسبق لكلّ معنى، إنها الشيء الوحيد الذي لا يمكن أن يطرحه الفكر لأنّها مفترضة سلفا في كلّ تفكير. لكن إذا كان الشيء الوحيد الذي يمكن الاعتراف به لموضوع ما هو تلك الدلالة التي تسبغها عليه، بشكل نشط، تلك الأنا المتعالية، فإنّ العالم يكون عندئذ معتمدا وجوديا على هذه الأنا المتعالية وهذه مثالية تعتبر أن العالم لا وجود له بدون دلالة للوعي، إنها مثالية ذاتية تجعل الواقع معتمد وجوديا على الذات التي تمنحه الدلالة. لكن مرّة أخرى يمكن القول بأنّ العالم قد يستمرّ في الوجود بمعزل عن الوعي المحض، لكن قد يردّ على ذلك بأنّ مثل هذا العالم إن وجد يكون بدون معنى بنفس الطريقة التي تكون بها جملة مكتوبة هي غير ذات دلالة، إذا لم تكن ثمّة عقول لتعي معناها، إنّه عالم غير قابل للتصوّر[1]. يأخذ الوعي دائما في الظروف العادية حسب "هوسرل" هذه الصيغة: أنا على وعي مباشر بالأشياء لا على وعي بنفسي كموضوع، فعند النظر إلى المائدة مثلا، فإن وعيي يكون وعيا بالمائدة وليس وعيا بنفسي حائزا على خبرة النظر إلى المائدة.

3- الفينومينولوجيا بعد هوسرل:

[1] - عادل مصطفى، مرجع سابق، ص 203-204.

وجد المنهج الفينومينولوجي أتباعا فهموا جيّدا ثورية هذا المنهج، وتمكّن بعضهم من تأسيس مذهبه الفلسفي بمساعدة هذا المنهج، حيث نجد تلميذ هوسرل ووريثه الشرعي "مارتن هيدغر" (1889-1976) قد وظّف المنهج الفينومينولوجي في بناء فلسفته الأنطولوجية كما عبّر عن ذلك في كتابه "الوجود والزمان" 1927 قائلا: "ليست الأنطولوجيا ممكنة إلاّ بوصفها فينومينولوجيا"، لكنه نحى بالفينومينولوجيا منحى مغايرا يعاكس فينومينولوجيا هوسرل التي قدّمت الماهية على الكائن، بينما يؤسّس هو لنوع من الإحالة المتبادلة بين الكائن وماهيته، متجاوزا مشكلة الأسبقية بين الماهية والكينونة، وذلك عن طريق اللغة[1]. كما تجاوز في رؤيته الأنطولوجية التأويلية قاعدة تعليق الحكم، بأن أبرز دور الفهم المسبق في بناء المعنى. كما نجد أيضا الفيلسوف الفرنسي الوجودي "جان بول سارتر" (1905-1980) الذي رفض المثالية المتعالية التي وصلت إليها الفينومينولوجيا، ويتجاوز هو أيضا قاعدة تعليق الأحكام، ليؤسّس لفينومينولوجيا سيكولوجية تحلّل مواقف الكائن في العالم. هذا وقد تسرّبت الفينومينولوجيا أيضا إلى مجال البحوث والتحليلات الدينية المعاصرة، مثل فلسفة الدين، وبالخصوص في كتابات " جان لوك ماريون" (1946-) وتحليلاته حول فينومينولوجيا العطاء Donation و"إمانويل لفيناس" (1905-1995) في تحليلاته للأنا بالآخر والآخر المتعالي ليؤسّس لرؤية جدية لمفاهيم دينية مثل الوحي والإله.

4- مناقشة:

تأسّست الفينومينولوجيا مع هوسرل "منهجا" قبل أن تصبح مذهبا صريحا. حيث بدأ بنقد الرياضيات بهدف البحث عن طريقة تمكّننا من اكتساب حقائق وإثباتها بالبرهان، فجعل القاعدة الأساسية هي "العودة إلى الأشياء ذاتها" مستبعدا كلّ حكم مسبق وكلّ نظرية سبق تصوّرها عن الواقع، فأصبح التعليق (الإبوخي) والحدس (الإدراك المباشر للأشياء) هما المبدءان الرئيسيان في المنهج الفينومينولوجي، أي وصف الظواهر المعطاة للشعور وصفا محكما. وعلى هذا الأساس يمكننا القول أن الفينومينولوجيا بوصفها منهجا، تبدو لأوّل وهلة وكأنّها ضرب من "الوضعية" Positivisme، ولكن هذا لا يعني بحال أنها تستبعد الفلسفة أو الميتافيزيقا، فالحقّ أن التيار الفينومينولوجي لم يتوان أن يصبح اتجاها ميتافيزيقيا حقيقيا. ومن جهة أخرى فإن المنهج ذاته يتضمّن "مذهبا"، لأنّ الإبوخية وهي عبارة عن وضع مجال الوجود كلّه بين قوسين، ولا يترك أمام العقل سوى الظاهرة الخالصة، فإنها تجعل الفينومينولوجيا

[1] - محمد بن سباغ، تحولات الفينومينولوجيا المعاصرة، ميرلوبونتي في مناظرة هوسرل وهيدغر، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، ط1، 2015، ص 74.

تتضمّن نوعا من المثالية، ترجع الكون إلى أفكار وإلى الوعي الخالص[1]. ولعلّ هذه العودة إلى الوعي الخالص أو الأنا المتعالي هي ما جعلت الماركسيين يعتبرون الفينومينولوجيا فلسفة مثالية غيبية، خصوصا عندما التحمت بوجودية هيدغر وسارتر، وميرلوبونتي وغيرهم من فلاسفة الغرب الرأسمالي المعاصر. فقد هاجم " جورج لوكاتش" الحدس الفينومينولوجي كوسيلة إدراك خادعة، ومنتشرة في الفلسفة البورجوازية بالذات.

خاتمة:

انتهى التيار الفينومينولوجي مع مؤسّسه "إدموند هوسرل" إلى مثالية متعالية أساسها الأنا المتعالي، بوصفه منتجا للمعرفة، وهذا ما جعل أتباع هوسرل يبتعدون قليلا عن أفكاره، وعن مثاليته الذاتية، ليؤسّسوا لأنفسهم رؤى وفلسفات جديدة، عبر إعادة تشكيل قواعد المنهج الفينومينولوجي، وهذا يؤكّد من ناحية أخرى الأهمية التي تكتسيها الفينومينولوجيا والمنهج الفينومينولوجي ليس في الحقل الفلسفي فقط، بل في مختلف مجالات المعرفة (علم النفس، علم الاجتماع، التاريخ، الفن، الدين....الخ).

المحاضرة الخامسة عشر:التيار التأويلي أو التأويلية (الهرمينوطيقا) Herméneutique

الهدف: التعريف بالتيار التأويلي ومبادئه الأساسية

مقدمة:

التيار التأويلي أو الهرمينوطيقي وإن ارتبط ظهوره تاريخيا، بتفسير النّصوص الدّينية exégèse ،قبل أن يصبح نظريّة في تأويل النّصوص الأدبية ،فإنّ الجهاز المفاهيمي الذي تشكّل المصطلح في كنفه حتّى

[1] - عادل مصطفى، فهم الفهم، مرجع سابق، ص 207.

أصبح مفهوما إشكاليا ،هو الفضاء الفلسفي ،لأنّ الفلسفة هي ميدان إبداع المفاهيم كما يقول دولوز ،وما دامت الهرمينوطيقا من الفلسفة ،فإنّها تعنى بالكشف عن الخفي والمتستّر وراء المظاهر الخارجية ،شأنها في ذلك شأن كلّ خطاب فلسفي ،إنّها تقصد البحث عن حقائق الأشياء والنّصوص وجوهرها. لكن إذا كانت الهرمينوطيقا بدأت كآلية منهجية لتأويل النصوص الدينية ثم الأدبية والقانونية، أي كتأسيس لإجراء منهجي للفهم (كيف نفهم؟) فهل حافظت على طابعها المنهجي الابستمولوجي كتيار يهتم بالإجراءات المنهجية للفهم؟ أم أنها تحوّلت من كونها نمط فهم للمعرفة إلى نمط فهم للوجود، أي انتقلت من المستوى الابستمولوجي إلى المستوى الأنطولوجي؟ وبالتالي ما حقيقة التأويلية ؟ وما هي مرتكزاتها ؟

1- التعريف بالتيار التأويلي أو الهرمينوطيقا:

كلمة تأويل في الفكر الغربي تقابلها لفظة Interpretation أو Hermeneutique ، وقد شاع استعمال الثانية عن الأولى، نظرا لارتباط الأولى بالتفسير، والتفسير مرحلة من مراحل التأويل. وكلمة هرمينوطيقا من الفعل اليوناني Hermeneuein ويعني "يفسّر" والاسم Hermeneia ويعني "تفسير".والكلمتان تتعلّقان لغويا بالإله "هرمس" Hermes رسول الآلهة في الأساطير اليونانية، يفهم لغتها ويترجم مقاصدها وينقلها إلى البشر.إنّه إله وسيط بين الآلهة والبشر،يفسّر لهم ويشرح ويفكّ الطلاسم.[1] فهي تعني المفسّر أو الشارح، أي تفسير نصوص دينية أو فلسفية،وتستخدم خاصة فيما هو رمزي[2]. فالهرمينوطيقي هو المؤوّل أو المترجم، ذلك الذي ينتج المعنى ويحاول فهم كلّ نسق دال. وتتضمّن كلمة Herméneutique بالإغريقية (Hermeneutike) في اشتقاقها اللّغوي كلمة Techneالتي تحيل إلى الفنّ بمعنى الاستعمال التقني لآليات ووسائل لغوية ومنطقية وتصويرية ورمزية واستعارية، وبما أنّ الفنّ له طابع تليولوجي (غائي)، فإنّ هدف هذه الوسائل والآليات هو "الكشف" عن حقيقة شيء ما. وتنطبق جملة هذه الوسائل على النّصوص قصد تحليلها وتفسيرها وإبراز القيم التي تختزنها والمعايير والغايات التي تحيل إليها. وعليه تعني Herméneutique **"فنّ تأويل وتفسير وترجمة النّصوص"**[3] . الهرمينوطيقا إذن هي "فنّ التأويل" ،فهي تهتمّ بالبحث عن الحقائق

[1] - بومدين بوزيد،الفهم والنص،دراسة في المنهج التأويلي عند شلاير ماخر ودلتاي ،منشورات الاختلاف.الجزائر 2008. ص .13.

[2] - أندريه لالاند،الموسوعة الفلسفية ترجمة خليل أحمد خليل، منشورات عويدات،بيروت،باريس،ط2، 2001.ص.555.

[3] - محمد شوقي الزين ،الفينومينولوجيا وفن التأويل،مجلة فكر ونقد،الرباط،المغرب ،العدد 16 السنة 1999.ص.13.

والمعاني المضمرة، أي أنّها تستهدف البدايات الأولى والمصادر الأصلية لكلّ تأسيس معرفي وبرهاني وجدلي(*). والفهم كغاية من وراء التّأويل يبحث عمّا هو أوّل في الشيء عمّا هو أصل. هذه الدلالة نجدها حاضرة في إيتيمولوجيا كلمة تأويل في اللّغة العربية، ففي لسان العرب "التأويل المرجع والمصير مشتقّ من آل يؤول إلى كذا أي صار إليه" ،وقد وردت كلمة التأويل في النصّ القرآني في أكثر من موضع، لتدلّ على استجلاء المقاصد وفهم المعاني، بمثل قوله تعالى: **"ربّ قد آتيتني من الملك وعلّمتني من تأويل الأحاديث"**سورة يوسف101، وقوله أيضا:**"هذا فراق بيني و بينك سأنبّئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا"** سوة الكهف 78.

وقد ذكر أنّ أوّل من استخدم هذا المصطلح –الهرمينوطيقا- هو أرسطو في كتابه الأرغانون، باب منطق القضايا،حيث يقول:"هرمينيا هي قول شيء عن شيء"، وفي القرون الوسطى استخدم مصطلح هرمينوطيقا بمعنى تفسير وتأويل الكتاب المقدّس، فهو يشير إلى مجموعة من القواعد التي يجب على المفسّر إتباعها لفهم النص الديني،وبعدها توسّع هذا المصطلح ليشمل كافة النصوص ذات المجال الإنساني،كالتاريخ وعلم الاجتماع والفلسفة والنقد الأدبي[2] . وهذا يدلّ على أن الهرمينوطيقا أو فنّ التأويل أو التأويلية، عرفت تحوّلات وتطوّرات نوعية خلال مسارها التاريخي، وهو ما يبرّر تقسيم هذا المسار إلى مراحل.

2- مراحل تطور الهرمينوطيقا (التأويلية)

2-1- مرحلة الهرمينوطيقا الكلاسيكية:

بدأت الهرمينوطيقا طريقها داخل دوائر الدّراسات اللاّهوتية العامّة كجهاز من القواعد و المعايير التي يجب أن يتّبعها المفسّر لفهم النصّ الديني(الكتاب المقدس) مع وجود نوعين من الهرمينوطيقا : هرمينوطيقا الإيمان و هرمينوطيقا الشّك، الأولى تقرأ النصّ (الإنجيل) بعيون الإيمان و هي القراءة التي

(*)- تعدّدت ترجمات الباحثين لمصطلح "الهرمينوطيقا" في الثقافة العربية،إذ لا نجد مقابلا واحدا أو مصطلحا جامعا لما يدلّ عليه هذا المفهوم في أصوله الغربية،ونعتقد أنّ ذلك جزء من العمل التأويلي بالنّظر إلى أنّ الترجمة تأويل.فبعضهم يستخدم صيغة "نظرية التّأويل" كما نجده عند صاحبا دليل الناقد الأدبي،و مصطفى ناصف،بينما يفضّل عبد المالك مرتاض كلمة "تأويلية" وطه عبد الرحمن كلمة"التأويليات" ،أمّا محمّد بن عياد فيعرّبها ب "علم التأويل"،و يستخدم كل من خالد التوزاني والجيلالي الكدية مصطلح "علم الفهم والتأويل".أمّا نصر حامد أبو زيد فيستخدم صيغة "نظرية التفسير" أو "علم التفسير" تمييزا له عن التفسير كمقابل لمصطلح exégèse.

-بن مزيان بن شرقي وآخرون.من مناهج النقد الفلسفي،دروس في المنهجية،دارالغرب،وهران،الجزائر،2007.ص 10[2]

هيمنت لفترة لا تقلّ عن 1500 سنة من تاريخ المسيحية ، أمّا الثّانية فهي تنطلق من قراءته بحذر و حتّى بشكّ أي الاهتداء بنور العقل أو الدّليل التاريخي[1] ، و قد تأسّست مدرستين هرمنيوطيقيتين داخل الكنيسة [2] :

مدرسة الإسكندرية و كانت مهتمّة بالقراءة الرّمزية و المجازية للنصّ المقدّس.

مدرسة أنطاكية اهتمّت بالقراءة الحرفية للنصّ.

وعموما فإنّ الهرمينوطيقا نشأت في أحضان اللاّهوت المسيحي لتفسير النّص الدّيني خصوصا بعد أن طرحت مجموعة من القضايا المشكلة المتعلّقة بالإنجيل ، ممّا أدّى إلى ظهور الإصلاح الدّيني وانتشار الفكر البروتستانتي وضعف العلاقة بكنيسة روما وذلك شعورا بضرورة إيجاد منهج يتضمّن قواعد لتفسير الكتاب المقدّس. وأوّل من استخدم مفهوم"الهرمينوطيقا "هو دان هاور(1654م) في محاضراته عن الهرمينوطيقا العامة تناول فيها قواعد تفسير الكتاب المقدّس حيث وجد في حركة الإصلاح الدّيني التي أسّسها "مارتن لوثر "الرّكيزة الأساسية في دعوته لإرساء القواعد اللاّزمة للتّفسير الصّحيح للكتاب المقدّس[3].

2-2- مرحلة الهرمينوطيقا الرومانسية:

أ- شلاير ماخر (علم الفهم)

نقل الفيلسوف الألماني "شلاير ماخر "(1768-1834) مصطلح الهرمينوطيقا من دائرة الاستخدام اللاّهوتي ليكون **علما و دربة لعملية الفهم و شروطها في تحليل النصوص**. وثمرة مسعاه وضع "هرمينوطيقا عامة" يمكن لمبادئها أن تقدّم أساسا لتأويل النصوص بجميع أنواعها.[4] فهو يعتقد أن من وراء تعدّد مجالات النصوص واختلافها تكمن وحدة أصلية. فجميع هذه النصوص تمثل في جسد لغوي ومن ثم لا بدّ من استخدام النّحو لكشف معنى العبارة. فالفكرة العامة تتفاعل مع البنية اللّغوية لتكوّن

[1] - دافيد جاسبر ، مقدمة في الهرمنبوتيقا ،ترجمة وجيه قانصو،منشورات الاختلاف، الجزائر.2008. ص.24

[2] - المرجع نفسه ,ص.45.

[3] - بومدين بوزيد،الفهم والنص، مرجع سابق، ص.14.

[4] - د.عادل مصطفى،فهم الفهم،مدخل إلى الهرمينوطيقا،نظرية التأويل من أفلاطون إلى غادامر، رؤية للنشر والتزيع، القاهرة، مصر،ط1، 2007، ص.72.

المعنى،كيفما كان مجال النص. وإذا أمكن صياغة مبادئ كلّ فهم لغوي فإنّ هذه المبادئ تشكّل هرمينوطيقا عامة تكون بمثابة أساس لكلّ هرمينوطيقا خاصة."لقد أحدث شلاير ماخر تحوّلا في مسار النظرية التأويلية ،تمثّل في نقله الاهتمام من تفسير النصوص بحثا عن المعنى، سواء أكان حرفيا أو مجازيا،كما كان في التراث الديني،إلى التركيز على عملية الفهم في حدّ ذاتها،والبحث عن خصوصية القواعد والشروط ،أو إن شئت الوصفات التي بها يتمّ تحقيق هذا الفهم في النصوص".[1]

ومحتوى نظرية شلاير ماخر قائم على أساس أن النّص هو وسيط لغوي ينقل فكر المؤلّف إلى القارئ وبالتّالي فهو يشير في جانبه اللّغوي إلى اللّغة بكاملها ،وفي جانبه النّفسي إلى الفكر الذّاتي لمبدعه والعلاقة جدلية صرف. وأنّه كلّما تقدّم النّص في الزمن صار غامضا ،وصرنا أقرب إلى سوء الفهم ،وعلى ذلك لا بدّ من قيام علم يعصم القارئ من سوء الفهم مهما تقدّم النّص في الزّمن لذا يؤسّس "شلايرماخر " الفهم على تصوّر جانبي النّص : اللّغوي و النّفسي ، اللّغوي موضوعي مشترك يجعل الفهم ممكنا ، والنّفسي ذاتي يعكس تجربة المؤلّف الذي يسعى القارئ إلى إعادة بنائها أي بناء تاريخية موضوعية للنّص، وعلى القارئ أن يمتلك ملكتي الحدس والتنبّؤ حتّى يكتشف أبعاد النّص.

ب- فيلهايم دلتاي (منهجية العلوم الإنسانية):

مع دلتاي (1833-1911) ستأخذ الهرمينوطيقا دلالة ميتودولوجية،ويتعلّق الأمر هنا بنوع من التأمّل في منهجية نمط متميّز من العلوم. لقد حاول دلتاي أن يوسّع مجال الهرمينوطيقا إلى أبعاد أورغانون لعلوم الفكر أو العلوم الإنسانية. المشكل الميتودولوجي لم يكن قد طرح من قبل "شلاير ماخر" في مجال العلوم الإنسانية. الموضوع الأساسي الذي شغل اهتمام دلتاي ،هو ضرورة أن تقوم هذه العلوم على مناهج،تحت شعار:"نقد العقل التاريخي" .إن تأسيس ابستمولوجيا علوم الفكر يتطلّب تحرير الهرمينوطيقا من النظرة التاريخية والنزعة السيكولوجية التي سادت في ألمانيا خلال القرن 19. لذلك استوحى دلتاي التّمييز الذي وضعه المؤرّخ الألماني درويزن (1808-1884) بين التفسير (Erklaren) والفهم (Verstehen). **فإذا كان منهج العلم الطبيعي هو التفسير،أي استخلاص القانون،فإنّ الفهم،فهم الفردية التاريخية انطلاقا من مظاهرها الخارجية،هو النّمط الملائم للعلوم الإنسانية**[2].(نحن نفسّر الطبيعة أمّا الإنسان فعلينا أن نفهمه). هكذا جعل ديلتاي الهرمينوطيقا بالنسبة للعلوم الإنسانية رديفا

[1] - عبد الغني بارة،الهرمينوطيقا والفلسفة،نحو مشروع عقل تأويلي، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2008، ص.176-177.

[2] - رجاء العتيري،من مناهج العقل الفلسفي،تبر الزمان،تونس،الطبعة الأولى 1999.ص.81.

للمنهج العلمي بالنسبة للعلوم الطبيعية، فيرى التفسير L'explication النمط الملائم لفهم العلوم الطبيعية في حين أن الفهم La compréhension هو النمط الملائم للعلوم الإنسانية. وقد جعل من حقل التاريخ ميدانه المعرفي المفضّل لممارسة منهج التأويل، وفهم الحياة لا ينبغي أن يتمّ بمقولات خارجة عن الحياة، وعن الخبرة المعاشة بل بمقولات مستقاة من صميم الحياة، فالحياة تفهم الحياة، أي يجب دراسة الحياة الإنسانية والاجتماعية من خلال الإجراء المنهجي القائم على العلاقة بين الحياة والتعبير والفهم، بمعنى الصلة بين الخبرة المعاشة والتعبير والفهم. التجربة الذاتية إذن هي أساس المعرفة عند دلتاي، مادام هناك مشترك بين الناس.

2-3- مرحلة الهرمينوطيقا الفلسفية (من الابستمولوجيا إلى الأنطولوجيا):

في هذه المرحلة من تطور الهرمينوطيقا انتقل البحث في العلوم الإنسانية من ميدانها الابستمولوجي إلى التساؤل عن بديهته الأساسية، أي الغوص في المشروع الابستمولوجي ذاته للكشف عن شروطه الأنطولوجية، أي االانتقال من البحث في منهجية الفهم (كيف نفهم؟) إلى حيقية وكينونة الفهم ذاته (ماهية الفهم).

أ- مارتن هيدغر والمنعرج الوجودي للهرمينوطيقا: أقام هيدغر(1889-1976) الهرمينوطيقا على أساس فلسفي، "طالما أن الفلسفة هي فهم الوجود، والفهم هو أساس الفلسفة وجوهر الوجود في نفس الوقت"[1]. بمعنى البحث عن معنى الفهم وحقيقته، بدلا من البحث عن منهج الفهم. ويرى هيدغر في كتابه "الوجود والزمان" أن مهمّة الفلسفة هي البحث معنى الوجود، أي إحياء سؤال الوجود المنسي، والطريق الوحيد لذلك هو البحث في حقيقة الوجود الإنساني، وهو ما يسمّيه بمصطلح "الدازاين Dasein" أو الوجود هنا. والفهم عند هيدغر هو شيء نكونه، فهو شكل من أشكال الوجود في العالم. فهم الوجود ككلّ يتمّ من خلال فهم الإنسان ووعيه لوجود نفسه، أي من خلال فهم الوجود الإنساني. بمعنى فهم الكائن المشخّص في ذاته لأنّه أقرب إلى متناولنا في معناه الخاص. ويرى هيدغر أن الفهم ليس نشاطا إنسانيا لا تاريخيا، مثلما زعم "هوسرل" بل وسيلة من خلالها يأتي العالم إلى الإنسان، وهي تصف كينونته. والعالم هو عالم مشترك، يخلقه ويديمه الفهم المشترك الذي يكون على شكل لغة، وبهذا يكون الفهم لسانيا وتاريخيا وأنطولوجيا.

[1] - نصر حامد أبو زيد، إشكالية القراءة وآليات التأويل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط6، 2001، ص 20.

ويرى هيدغر أنّنا عندما نؤوّل لا نسقط الدلالة على شيء عار أمامنا، أي أنّنا لا نلصق له قيمة، بل حينما نواجه شيئا داخل العالم، يكون للشيء مشاركة تتكشف في فهمنا للعالم، ولا يكون التأويل خاليا من الافتراضات المسبقة (الأحكام المسبقة) لشيء حاضر أمامنا، على الإطلاق، بل يرتكز على ما نعرفه نحن، أي أنه فهمنا المسبق الذي لا يمكن أن ينفصل عن كينونتنا.

ب- غادامير: التأويل كحوار مع النصّ

يعدّ هانز جورج غادامير(1900-2002) وريثا لفكر هيدغر، الذي حمل مشروع تأسيس رؤية فلسفية للهرمينوطيقا. إلاّ أن مصطلح الهرمينوطيقا لم يفرض نفسه داخل الحقل الفلسفي إلاّ مع غادامير في مؤلّفه العمدة "الحقيقة والمنهج"(*) سنة 1960، الذي أعاد من خلاله بعث الهرمينوطيقا في قلب النقاش الفلسفي، ضمن نفس المنحى الأنطولوجي الذي رسمه معلّمه هيدغر. ينتقد غادامر التصوّر الو ضعاني الذي تنتهجه العلوم الإنسانية اقتداء بالعلوم الطّبيعية و يؤكّد على أنّ العلوم الإنسانية ترتبط بالرقّة والدّقّة و فنّ الممارسة الذّاتية أكثر منه بمناهج مطبّقة وقواعد صارمة يقول:**"** لكن المشكلة البادية للعيان، تلك التي تطرحها العلوم الإنسانية على بساط البحث، هي أنّ المرء لا يدرك بشكل صحيح طبيعتها إذا قاسها بمقياس معرفة متقدّمة على نحو منتظم ولا يمكن لتجربة العالم التاريخي الاجتماعي أن ترقى إلى مرتبة علم عن طريق الإجراء الاستقرائي للعلوم الطبيعية**"**[1]**.** وغادامير لا يعترض على النّموذج العلمي المنهجي و يقرّ له بالشرعية، لكنّه يعتبر فرضه كنموذج وحيد للمعرفة يجعلنا نقصي أنماط أخرى من المعرفة، لذا يجب التفكير في إنصاف الحقيقة في العلوم الإنسانية بواسطة الهرمينوطيقا والتي ليست بالضّرورة منهجية[2].

(*)- في حوار أجري مع غادامير في جريدة لموند بتاريخ 19 أبريل 1981،أجاب غادامير عن سؤال يتعلّق بما يثيره عنوان "الحقيقة والمنهج" من خلافات بقوله:" لا يؤدّي العنوان دوره إذا ما كشف عن كلّ ما يريد أن يقوله الكاتب.بل يجب عليه على العكس من ذلك أن يجنّد حقول التفكير التي تثير حسّ الجمهور.فعلا إن الصيغة التي وجدتها غامضة إلى حدّ أنّ النّقاد اعتقدوا أن الكتاب يتعلّق تارة بآخر منهج للوصول إلى الحقيقة وطورا بإدانة جذرية للحقيقة .إن خلافات متطرّفة إلى هذا الحدّ هي في الواقع مثمرة..." والعنوان يحيل في الحقيقة إلى "إما الحقيقة أو المنهج" .ينظر مسارات،مجموعة من الكتاب،ترجمة محمد ميلاد،دار الحوار،اللاذقية،سورية،الطبعة الأولى 2004.ص.166.

- هانز جورج غادامير،الحقيقة والمنهج،ترجمة،د.حسن ناظم،علي حاكم صالح،مراجعة ،د.جورج كتوره،دار أويا طرابلس، ليبيا،الطبعة الأولى 2007.ص.51.

1

2 -jean grondin .l'herméneutique . (Que sais je ?).PUF.2em édition 2006.P .51.

يرجع غادامير منهج التأويل الذي يقترحه إلى نموذج الجدلية الأفلاطونية، باعتبار أن طرح الأسئلة هو الذي يحرّك الفكر ويوجّه البحث. وفنّ الحوار هو التوجيه الصحيح للأسئلة حتى تكون في خدمة الموضوع. فالحقيقة لا تطلب منهجيا بل جدليا، أي أنها تتجلّى في شكل حوار، حيث يلقي الموضوع أو النص أسئلته الخاصة التي يتعيّن الإجابة عنها. فالهرمينوطيقا أو فنّ التأويل تقتضي الدخول في حوار مع النّص، والحوار مع النص هو بحث عن تقليص المسافة بين النص وقارئه، لأن الفهم ليس فعل ذاتية الفرد، بل هو وضع المرء لنفسه داخل سيرورة التراث التي ينصهر بها الماضي والحاضر باستمرار، وهذا ما يسمّيه غادامير بانصهار الآفاق (أفق القارئ مع أفق النص). فكلّ باحث ومفسّر يعيش داخل التاريخ، تحيط به مجموعة المعلومات والتوقعات والمقبولات، وهي ضرورية لعملية الفهم، بل لا يمكنه التخلّص من تأثيرها. والفهم هو دائما مسار لغوي، لأن الوجود الوحيد الممكن فهمه وإدراكه هو اللغة كما يقول غادامير، فكلّ ما يمكن أن يفهم هو وجود يتمفصل في اللغة، وهذا يجعل من عالمية اللغة، المعنى، الوجود والفهم مبرّرا لبناء هرمينوطيقا عالمية.

3- خصائص، عناصر ومراحل القراءة التأويلية:

3-1- خصائصها: تتميّز القراءة التأويلية بالخصائص التالية:

- تنطلق من مبدأ الوعي التام بأنها لا تدعي الوصول إلى الحقيقة (احتمال من بين احتمالات).

- قراءة متعدّدة (مفتوحة) مادامت قائمة على التأويل.

- ليست تلقّيا ساذجا للنص (تحليل، عرض، تلخيص) بل تعيد بناء الخطاب.

- تنطلق من الجانب اللغوي الذي يجب فهمه في أبعاده النحوية والشعرية والرمزية.

- قراءة موحّدة لا تستهدف الكشف عن نقيض النص (التقليل من التناقض).

- قراءة منتجة تتحاشى محاكاة النص في حرفيته(إضافة وإثراء).

- قراءة منضبطة، لأن التأويل عملية مسؤولة.

3-2- عناصرها: تتمثّل في مجموع الآليات التي تجنّب إمكانية الانفلات التأويلي والتعسّف على النص:

- الفرضية: الانطلاق من معرفة قبلية للنص (جنسه، طبيعته الفنية والجمالية) فمثلا النص الشعري المعاصر متميّز فنيا وبنيويا عن النص الروائي أو المسرحي.

- المقصدية: مراعاة مقاصد المؤلف لحماية النص من الانزلاقات التأويلية التي قد تحمّله ما لا يحتمل.

- الدائرة التأويلية: العلاقة بين الكل وأجزائه، أي الانطلاق من فهم كلي للنص يليه تحليل الأجزاء ثم العودة إلى الكل (العلاقة الجدلية).

- السياق: السياق المقامي (التاريخي)- السياق الثقافي والحضاري- السياق الجمالي، أي الخلفية المذهبية أو المنطلقات الجمالية (الرومنسية، الكلاسيكية، الرمزية، الواقعية، السريالية....)

3-3- مراحلها: للقراءة التأويلية مستويين:

- مرحلة التلقي، أي قراءة استكشافية يستشعر فيها القارئ جمالية النص ولغته وأساليب تصرفه الأسلوبي. (بدون إحالة)

- مرحلة التأويل، أي قراءة استرجاعية ومحاولة استجلاء المعنى انطلاقا من النص من خلال انصهار أفق القارئ مع أفق النص (بالإحالة إلى عالم القارئ)[1].

4- مناقشة:

من أبرز الانتقادات التي وجهت للتأويلية، خاصة تأويلية غادامير ذات المنحى الفلسفي، تلك التي ارتبطت بالجدل الدائر بينه وبين مواطنه "يورغن هابرما" أحد أبرز رواد الجيل الثاني لمدرسة فرانكفورت، حيث نجده – هابرماس- يأخذ على غادامير ميله إلى إخضاع الفهم والتأويل لسلطة التراث (التقليد/الإرث). فالتراث في نظر هابرماس (أو في نظر كلّ المفكرين ذوي الخلفية الماركسية) هو وعاء يحتوي بداخله تحريفات إيديولوجية وتعمية وزيف. هذا زيادة على كونه مليء بالانقطاعات والتمزّق الداخلي، ممّا يوجب الانعتاق من ربقة التراث وبخاصة إذا كان هذا التراث قمعيا. كما أعاب هابرماس على غادامير عدم التنظير في المنهج التأويلي واكتفائه بمجرّد عرض مفاهيم موغلة في التجريد من مثل الآفاق وانصهار الآفاق، ممّا جعل التأويلية عرضة للتهكّم والازدراء من جانب الوضعيين. أمّا الحكم المسبق الذي جعل منه غادامير أداة للفهم كما أراد هيدغر، فكثيرا ما تكون هذه الأحكام قيودا عثرات أمام العقل، ولا بدّ من إخضاعها للتمحيص النقدي باسم العقل والتأمّل. أمّا اللغة التي اعتبرها هيدغر مسكن الوجود، وجعلها غادامير أساس الفهم وشرط وجوده، فإنها في نظر

[1] - الموسوي محمد علي، في القراءة الهرمينوطيقية: الأصول والآليات، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت،العدد 181، يناير- مارس، 2020، ص ص. 228- 236.

هابرماس كيان إيديولوجي محمّل بالزيف والخرافة، كذلك فهم اللغة لا جدوى منه ما لم يتمّ التحقّق من الايديولوجيات وتمحيصها. فهناك فرق بين الفهم من خلال اللغة والإنعتاق من اللغة، وتشويهات اللغة لا تأتي من استعمال اللغة بل من ارتباطها بالعمل وبالسلطة، ممّا يؤدّي إلى تشويه الفهم وليس مجرّد سوء الفهم.

وإذا كان الحوار (وهو منهج الفهم) لا يكفي للتغلّب على هذا التشويه فإنّ كشف الايديولوجيا وتفكيكها يجب أن يمرّ من خلال عملية التفسير L'explication وليس مجرّد الفهم La comprehension. وفي هذا السياق يذهب "بول ريكور" في كتابة "من النص إلى الفعل، أبحاث التأويل" إلى أن الإشكال الذي يواجه قضية التأويلية /الهرمينوطيقا ويجعلها في مأزق هو التعارض بين الحقيقة والمنهج، فإذا طبّقنا الرؤية المنهجية (التفسير) فسنفقد، لا محالة، الكثافة الأنطولوجية للواقع المدروس، وإذا طبّقنا موقف الحقيقة (الفهم) فسنتخلّى عن موضوعية العلوم الإنسانية، لذلك فهو يدعو إلى هرمينوطيقا جدلية تتجاوز هذا الصراع(بين النزعة الذاتية والنزعة الموضوعية/بين الابستمولوجيا والأنطولوجيا) وتؤكّد على التفاعل والتكامل بين التفسير كإجراء منهجي أولي ضروري في التعاطي مع النص (التحليل اللساني، والفهم/التأويل الذي ينفتح على عالم القارئ/المؤول، أي على دور الذات وأدواتها، مثل الأحكام المسبقة، المقام، انصهار الآفاق، السؤال والجواب، لتفتح حوارها مع النص (كبنية)، فيخرج إلى الوجود فهم مخصوص هو ثمرة هذا التكامل بين الموضوعي والذاتي[1].

خاتمة:

يتّضح ممّا سبق أنّ التأويلية أو الهرمينوطيقا تيار فكري يعود من حيث أصوله التاريخية إلى الحضارة اليونانية، وهو يهتمّ بتأويل وتفسير وترجمة النصوص، تبلور بداية كآلية منهجية لقراءة وفهم النصّ الديني (الكتاب المقدس)، ليتوسّع بعد ذلك إلى مختلف النصوص القانونية، الأدبية والفلسفية، محاولا وضع قواعد عامة للفهم تمتدّ إلى مختلف مجالات العلوم الإنسانية، لكنّه تجاوز بعد ذلك المستوى الابستيمولوجي والميتودولوجي (منهج الفهم) ليتحول إلى رؤية فلسفية ذات أبعاد أنطولوجية تكشف عن حقيقة الفهم كظاهرة وجودية (كينونة الفهم).

[1] - بول ريكور، من النص إلى الفعل، أبحاث التأويل، ترجمة محمد برادة، حسان بورقية، عين للدراسات والحوث الانسانية والاجتماعية، القاهرة، مصر، ط1، 2001، ص 116-133).

المراجع

- جميلة بنت عيادة الشمري، مفهوم التيارات الفكرية وعلاقته بالمصطلحات ذات الصلة، شبكة الألوكة، ط.1، 2016.

- عدي إبراهيم المناوي، التيارات السياسية العلمانية و صناعة الرأي العام : دراسة حالة العراق بعد 2003، دار زهران للنشر والتوزيع، عمان/الأردن، ط. 1، 2013.

- مجمّع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، بيروت، 2004. (بتصرّف)

- ابن منظور، لسان العرب، مادة ذهب، دار المعارف، مصر، 2016.

- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، الجزء الثاني، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982.

- بول ريكور، من النص إلى الفعل، أبحاث التأويل، ترجمة محمد برادة، حسان بورقية، عين للدراسات والحوث الانسانية والاجتماعية، القاهرة، مصر، ط1، 2001

- أندري لالاند، الموسوعة الفلسفية، ترجمة، خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، باريس، ط2، 2001، ص 585.

- عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، الجزء الثاني، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1984.

- برتراند راسل، تاريخ الفلسفة الغربية، الكتاب 3، الفلسفة الحديثة، ترجمة محمد فتحي الشنيطى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1977.

- جون لويس، مدخل إلى الفلسفة، ترجمة أنور عبد الملك، دار الحقيقة للطباعة والنشر، بيروت.

- إمانويل كانط، مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة، ترجمة نازلي اسماعيل حسين، فتحي الشنيطي، تقديم عمر مهيبل، موفم للنشر 1991.

- هنتر ميد، الفلسفة أنواعها ومشكلاتها، ترجمة فؤاد زكريا،مؤسسة هنداوي، د ت.

- فيرنر هيزنبرغ، المشاكل الفلسفية للعلوم النووية، ترجمة أحمد مستجير، مراجعة محمد النادي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1972.

- جاك ميلو، ميشال سيمون، لينين الفلسفة والثقافة، دار الحقيقة للطباعة والنشر، لبنان، 1971.

- أحمد أمين، زكي نجيب محمود، قصة الفلسفة اليونانية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة مصر، 2018.

- يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، 2014.

- جون لويس، مدخل إلى الفلسفة، ترجمة أنور عبد المالك، الدار المصرية للكتب، مصر، 1978.

- عبد الوهاب المسيري، الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، دار الفكر المعاصر، دمشق، سوريا، ط04، 2010.

- الخشت، محمد عثمان، العقلانية والتعصّب، نهضة مصر للطباعة والنشر، مصر، ط1، د ت

- النجار رمزي، الفلسفة الغربية عبر التاريخ، دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، ط2، 1979.

- فؤاد كامل، جلال العشري، عبد الرشيد الصادق، الموسوعة الفلسفية المختصرة، مراجعة زكي نجيب محمود، دار القلم، بيروت لبنان.

- عمر بهيبل، البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، "2، 1993.

- زكريا إبراهيم،مشكلة البنية، أو أضواء على البنيوية، مكتبة مصر للطباعة.

- لوسيان قولدمان، العلوم الإنسانية والفلسفة، ترجمة، يوسف الانطكي، محمد برادة، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، مصر، 1996.

- كلود لفي شتراوس، الأنثروبولوجية البنيوية، ترجمة مصطفى صالح، منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي، دمشق، 19977.

- جان بياجيه، البنيوية، ترجمة عارف منيمنه، بشير أوبري، منشورات عويدات، بيروت، باريس، ط4، 1985.

- مصطفى خلف عبد الجواد، نظرية علم الاجتماع المعاصر، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2009.

- هنري لوفيفر، هذه هي الماركسية، ترجمة محمد عيتاني، دار بيروت للطباعة والنشر، 1952.

- نورة كطاف هيدان، النظرية الماركسية : الأسس والتقييم، مجلة كلية القانون والعلوم السياسية، العدد 5،جامعة كركوك.

- مجاهد عبد المنعم مجاهد، مقدمات في نقد النظرية الماركسية، منشورات الطليعة، تونس، 1986.

- تشارلز داروين، أصل الأنواع، ترجنة اسماعيل مظهر، مؤسسة هنداوي، 2018.

- هنتر ميد، الفلسفة أنواعها ومشكلاتها، ترجمة فؤاد زكريا، مؤسسة هنداوي، 2017.

- محمد السيد غلاب، أصل الإنسان، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1977.

- ابن سينا أبو علي، منطق المشرقيين، المكتبة السلفية، القاهرة، مصر، د ط، د س.

- يمنى طريف الخولي، الوجودية الدينية، دراسة في فلسفة باول تيليش، مؤسسة هنداوي، القاهرة، مصر، 2017.

- الشاروني حبيب، فلسفة جون بول سارتر، منشأة المعارف، الاسكندرية، مصر، 1962.

- محمد عبد الله الشرقاوي، في الفلسفة العامة، دراسة ونقد، دار الجليل، بيروت، لبنان، ط2، 1991.

- سيغموند فرويد، حياتي والتحليل النفسي، ترجمة مصطفى زيور، عبد المنعم المليجي، دار المعارف، 1994.

- محمد فؤاد جلال، مبادئ التحليل النفسي، مؤسسة هنداوي، مصر، 2017.

- أحمد عزت راجح، أصول علم النفس، دار القلم، بيروت، لبنان، دط، دس.

- سيغموند فرويد، مستقبل وهم، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط4، 1998.

- زكي نجيب محمود، من زاوية فلسفية، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط4، 1993.

- وليام جيمس، البراغماتية- ترجمة محمد علي العريان، دار النهضة العربية، القاهرة، مصر،1965.

- فؤاد كامل، أعلام الفكر الفلسفي المعاصر، دار الجيل، بيروت، لبنان، "1، 1993.

- مصطفى النشار، مدخل جديد إلى الفلسفة، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ط4، 1998.

- سماح رافع محمد، الفينومينولوجيا عند هوسرل، دراسة نقدية في التجديد الفلسفي المعاصر، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، ط1، 1991.

- دموند هوسرل، أفكار ممهّدة لعلم الظاهريات الخالص وللفلسفة الظاهرياتية، تعريب، أبو يعرب المرزوقي، دار جداول، بيروت، لبنان، ط1، 2011.

- محمد شوقي الزين، الفينومينولوجيا وفن التأويل، مجلة فكر ونقد، المغرب،العدد 16، 1999.

- عادل مصطفي، فهم الفهم، مدخل إلى الهرمينوطيقا،نظرية التأويل من أفلاطون إلى غادامير، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2007.

- سعيد توفيق، دراسة في فلسفة الجمال الظواهرية، الخبرة الجمالية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان، ط1.

- بن مزيان بن شرقي، قواسمي مراد، وآخرون، من مناهج النقد الفلسفي، دروس في المنهجية، دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007.

- محمد بن سباغ، تحولات الفينومينولوجيا المعاصرة، ميرلوبونتي في مناظرة هوسرل وهيدغر، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، ط1، 2015.

- بومدين بوزيد،الفهم والنص،دراسة في المنهج التأويلي عند شلاير ماخر ودلتاي ،منشورات الاختلاف.الجزائر .2008 .

- دافيد جاسبر ، مقدمة في الهرمنبوتيقا ،ترجمة وجيه قانصو،منشورات الاختلاف، الجزائر.2008.

- عبد الغني بارة،الهرمينوطيقا والفلسفة،نحو مشروع عقل تأويلي، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2008.

- رجاء العتيري،من مناهج العقل الفلسفي،تبر الزمان،تونس،الطبعة الأولى 1999.

- نصر حامد أبو زيد، إشكالية القراءة وآليات التأويل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط6، 2001.

- هانز جورج غادامير،الحقيقة والمنهج،ترجمة،د.حسن ناظم،علي حاكم صالح،مراجعة ،د.جورج كتوره،دار أويا طرابلس، ليبيا،الطبعة الأولى 2007.

- الموسوي محمد علي، في القراءة الهرمينوطيقية: الأصول والآليات، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت،العدد 181، يناير- مارس، 2020.

- Gianni Vatimo, Maurizio Ferraris, Diego Marconi, Encyclopédie de la philosophie, la pochothèque, librairie générale française 2002, pour la traduction et l'adaptation.

-jean grondin .l'herméneutique . (Que sais je ?).PUF.2em édition

2006.

- Jay Stevenson, La philosophie, éd, Marabout, France, 2008.

- Jacqueline Russ, Badal Leguil, Dictionnaire de philosophie, Bordas, Paris, 2004.

- https://fr.wikipedia.org/wiki/Marxisme

https://psychaanalyse.com/pdf/trois_grands_courants_psychanalytiques.-pdf

https://lescourantspedagogiques.weebly.com/le-courant-beacutehavioriste.html

https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%B3%D9%84%D9%88%D9%83%D9%8A%D8%A9